نَسل الدَّجال

حُقوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

اسم الكتــاب: نَسل الدَّجال

تـأليـــــف: عبير سعد

مراجعة وتنسيق داخلي: سالم عبدالمعز سواح

تصميم غلاف: عبير سعد

النــاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القـطـــــع: 20*14

سنـة النشـر: 2023

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 29542 / 2023

الترقيم الدولي (ISBN): 6 - 476 - 844 - 977 - 978

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-476-6

نَسل الدَّجال

عبير سعد

مجموعة قصصية

الإهداء

إلى جدتي الساكنة بأعماق فؤادي

رغم طول الفراق

كلما أمسكتُ بقلمي تذكرتُ حكاياك

مؤنسة ليالي طفولتي وشبابي

فأخطها على صفحاتي

علها تؤنس وحدة من لم يُرزق بمثلك

ملكة قلبي وملاكي..

الإهداء

من كان رزقُه صديقًا صدوقًا يخاف الله فيه

يصحبه في طريق الخير

ويمسك بيديه نحو الجنة

فليجعل له من قلبه سكنًا..

إليكم يا "من تعرفون أنفسكم"

لقد جئتموني حياةً بدلت أقداري

فلا حرمني الله صحبتكم في الدنيا والآخرة.

راح ضَلّ ناطرتك

وقفتْ أمام دولاب ملابسها تتأمل فستان زفافها الرائع بتصميمه المميز على الطراز الفيكتوري، تتخيل نفسها حين ترتديه، بطبقات الدانتيل الذي يغطي كتفيها ليعطيها مزيجًا من الرقة والفخامة، الوسط الدقيق الذي يتناسب مع تقاسيم جسدها النحيل، ليتسع مع نزوله للأسفل بطبقات من الساتان بلون السكر، يفترش الأرض من خلفها بذيل طويل يمتد من وسطها ليغطي مساحة كبيرة جدًّا من حولها، لا بد أنها ستكون غاية في الفتنة والجمال..

أجبرها صوت جرس الهاتف على الخروج من خيالاتها الجميلة، تستمع للنغمة المميزة التي خصصتها لحبيبها، أخيرًا ستُكلل سنوات صبرها الأربع بالجبر، ويجمعهما رباط الزوجية بميثاقه الغليظ بعد أقل من أسبوعين.

أسرعت لتجيب بلهفة:

- كيفك قلبي؟ إتوحشتك كتير..

ليرد عليها بأرق الكلمات التي تنقل لها شوقه، وكم ينتظر يوم زفافهما بفارغ الصبر، يخبرها بأنه قد أتم كل التجهيزات الباقية بمنزلهما، ولم يتبقَّ بجدولهما سوى بعض المعاملات التي تخص قاعة الزفاف حيث سيقام الحفل، وترتيب فقراته مع القائمين عليها.

اتفقا على الذهاب للنوم في وقت باكر، وأن يكون لقاؤهما في الصباح عند العاشرة، أخبرها أنه يريد تناول الغداء معها بعد الانتهاء من التزاماتهما قبل العودة للمنزل، ووعدها ببعض المثلجات بطعم الشيكولا التي تُحب..

تتردد تغريد في إنهاء المكالمة، تدمع عيناها إثر شعور غريب يغتال سعادتها لا تدري له سببًا، تحدثه:

- محمد، إنت بتعرف قد شو بحبك؟

ليجيبها بكل الحب:

- أكيد بعرف حبيبتي، وأنا كمان بحبك كل هالقد وأكتر بكتير.

اتجهت إلى فراشها بعد دقائق، لتغزو أحلامها الأشباح المرعبة، تغرقها دموعها وهي ترى طائرًا أسود يختطف حبيبها صاعدًا به نحو السماء.

صوت انفجار كبير يفزعها وجميع المخلوقات في البلدة الهادئة والبلدات المجاورة لها، إنها المرة الثالثة التي يتكرر فيها هذا الصوت في خلال أسبوع واحد ولا أحد يعلم سببه.. لا أحد إطلاقًا.

في المرة الأولى خرج الناس فزعين إلى الشوارع كيوم الحشر، لا يعلمون ما يحدث، وما مدى خطورة هذا الأمر الذي أصبح مجال الحديث على مواقع التواصل الاجتماعي في الصباح، فالجميع قد سمعه في محيط

بضعة أميال، لتأتي مبررات الحكومة أنه مجرد صوت سَببه انفجار إحدى معدات الحفر في مشروع قريب.

لم يقتنع الناس بهذا التبرير، لكنهم قد وجدوا فيه مسكنًا لمخاوفهم، لتستمر الحياة بنفس وتيرتها الطبيعية، وعندما تكرر الأمر للمرة الثانية كان الفزع أقل، والتبريرات جاهزة، والناس أكثر استعدادًا لغض الطرف عنها، طالما لم يحدث ما يسوءهم فما الداعي للقلق!

جاءت هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، فمع الفزع الذي أصاب الجميع لكون الصوت هذه المرة أكثر ارتفاعًا، فقد خرجوا من النوافذ ينظرون في الشوارع الخالية من المارة، فالغالبية العظمى كانوا نيامًا، إلا من خرج لأداء صلاة الفجر منذ قليل، لكن هناك شيء غريب، جعل الجميع يتساءل، ما هذه الرائحة الكبريتية البشعة التي تنتشر في الشوارع؟!

ازداد الفزع مع ظهور هذا الوميض الأزرق في السماء، ضوء غريب يشبه أضواء الاحتفالات الليزرية، يمتد من السماء نحو الأرض وكأنّه سيف من الرعد يطعنها في مقتل.

رياح من القلق تعصف بتغريد وأسرتها خاصةً عندما حاولت الاتصال بخطيبها وإخوتها في منازلهم فكانت كمن يبحث عن قطرة ماء في وسط الصحراء، فقد فشلت في العثور على أي شبكة اتصال متاحة، لتتلاشى معها القدرة على التواصل مع الآخرين، قرروا النزول من المنزل والاتجاه نحو بيت خطيبها الواقع في نهاية الشارع.

لم يمهلهم القدر للوصول إلى سيارتهم الواقفة على بُعد خطوات في ساحة الانتظار، فما كادوا يبتعدون عن بوابة المنزل بضعة مترات حتى باغتتهم هزة قوية جعلت الشوارع تميد بهم، ارتجت الأرض من أسفلهم بعنف وكأنها تريد أن تتخلص من كل ما علق بها من بشر وجماد.

صراخ، ظلام، دمار في كل مكان، نيران، أدخنة وتراب، تحول المشهد من حولهم لقطعة من الجحيم، ساد الهرج فكلٌّ يجري بلا وجهة ولا رؤية، يبحث عن أي ملجأ للاحتماء من هذه القيامة الصغرى..

ستون ثانية من الوقت محت إعمار عقود من الزمان، الدمار في كل مكان، صرخات تتعالى من كل حدب، تشهد على ضعف الإنسان أمام الطبيعة حين تثور، فلا يجد ملجأً سوى اللجوء إلى الله.

شُلت عقارب الساعات من هول ما ترى الأعين، لا تدري أساعات مرت أم ثوان قبل أن تشرق الشمس على استحياء لتضيء المشهد وتتضح تفاصيله المروعة.

دمار على مد البصر من جميع الاتجاهات، لحظات من ذهول ارتسمت على الوجوة، صَمتَ الصراخ، تجمدت الأنفاس، حتى العيون أبت أن تطرف فاتسع

بؤبؤها ليكمل رسم لوحة من الرعب والذهول نُحتت بيد القدر القاسية.

تقف أمام المبنى المنهار على كل ساكنيه، تنظر هذا الشريط الأصفر الملتف من حوله كحية تعتصر ما بقي بداخله من حياة.

على بُعد خطوات لافتة خشبية كبيرة تم وضعها منذ أيام حين قررت قوات الإنقاذ التوقف عن البحث عن ناجين تحت الأنقاض، كُتب عليها بحروف من وجع "لم ينجُ أحد".

تجلس منذ أيام على نفس الكرسي المتداعي أمام أنقاض المنزل حيث عاش حبيبها، وحيث قُدر له أن يُدفن تحت جدرانه التي شهدت طفولته وشبابه، فأبت أن تلفظه خارجها.

تمسك بيدها دفترًا تكتب فيه بخط مهتز، وعيون تحجب دموعها الرؤية عنها:

"١٣ يوم ناطرتك لتطلع من تحت الأنقاض

١٣ يوم يومًا كان بقيان لعرسنا أنا وأنت بعد حب أربع سنين

مثل هاليوم كنت رح أنزف إلك وصير حلالك

ومثل هاليوم فقدتك

فقيدي وحبيبي محمد

راح ضل ناطرتك..

عروستك تغريد ٦ - ٣ - ٢٠٢٣م".

*****

منزل فاخر للبيع

اعتادتِ الوقوف فوق سطح منزلها، تراقب الرائح والغادي، تحمل معها في أثناء صعودها "راديو ترانزستور" صغيرًا، وكوبًا من الشاي بالنعناع الذي تعشق، تنظر إليها لترى ملامحها التي اكتست بألوان الخريف رغم سنواتها التي لم تتعد الخامسة والأربعين، فبعد وفاة والدتها منذ شهور وهي تعيش وحيدة في هذا المنزل الكبير الذي هجره ساكنوه.

في طريقها للأعلى تنظر إلى أبواب شقق إخوتها الأربع الذين هاجروا واحدًا تلو الآخر، وتركوا والدتهم المريضة في عهدتها.

في البداية كانت تسعد برجوعهم في الإجازات كل عام يؤنسون وحدتها، ويسعدون قلب والدتهم المسنة بوجودهم من حولها، لكن بعد عدة سنوات استطاع كل

منهم توفير مسكن في بلاد الغربة ليصطحب زوجته وأولاده، لتتسع هوة الفراق لسنوات متتالية، لا صلة تربطهم بوالدتهم سوى اتصال هاتفي مرة أو مرتين في كل شهر..

يتردد صوت وديع الصافي الشجي:

دار يا دار يا دار

يا دار قوليلي يا دار

راحوا فين حبايب الدار؟

لتتساقط دموعها حارة على خديها، تردد معه:

- راحوا فين حبايب الدار؟

تتساءل؛ كيف انفرط عقد جمعهم ليصبح كل منهم في وادٍ منعزل؟! فآخر مرة رأتهم كان يوم وفاة والدتها، حضروا ليتموا الإجراءات ويتلقوا العزاء، ليطير كل منهم إلى وجهته في اليوم التالي، ليكون نصيبها من الود منهم

اتصالًا واحدًا من كل منهم، لتنقطع بعده أخبارهم منذ شهرين ويزيد.

تتذكر سنوات عمرها التي فرت من بين أصابعها، شبابها وفتنتها التي جعلتها قِبلة الخُطاب منذ نُحتت تفاصيل أنوثتها، عيونها بلون السماء المنعكسة على صفحة البحار العميقة، ليل جدائلها الممتدة من حولها، حسبها ونسبها الذي كان حافزًا إضافيًا لطوابير من طالبي القُرب..

عاشت شبابها ملكة في بيت والدها، فهي ابنته الوحيدة رزقه الله بها وأربعة ذكور، نشأوا في كنفه في ترف من العيش والمشاعر، فقد كان نِعم الأب، تتردد كلماته في أسماعها: "إنتي ملكة في بيتك، مش هأعطيكي غير لراجل يقدرك ويعاملك ذي ما اتعودتي في بيت أبوكي".

تنظر عبر الشارع إلى هذا البيت العزيز في نهايته، تتذكر تفاصيل خطبتها لمن يقطنه كما سكن قلبها منذ سنوات بعيدة، حين جاءها خاطبًا فقبله والدها صهرًا لخلقه ودينه، وظروفه المناسبة.

تمر الشهور ويأبى القدر إلا أن يطعنها في صميم قلبها، فقد خطف والدها الحبيب، وتركها في عهدة إخوتها الذكور وتحت وصايتهم..

جاءتها الطعنة التالية عندما أصر إخوتها على فسخ خطبتها، فجميعهم صمت عن رفضه لخطيبها صالح، مخافة غضب والدهم، فهو من وجهة نظرهم المادية، لا يرقى ليكون صهرهم، فهو كالجميع أتى طامعًا في أموالهم والتي سيكون لأختهم منها نصيب ضخم من ثروة أبيها، وأتتهم الفرصة على طبقٍ من ذهب لطرده بعد وفاة والدهم، وتحكّمهم في مصير أختهم الوحيدة..

سنوات من عمرها مرت في حصار مرير، كانت فيها حبيسة جدران منزل والدها الفائق الترف، الخالي من كل حب بعد رحيله إلا والدتها العزيزة، لا تخرج إلا للضرورة القصوى، ثم أصبح خروجها من المنزل مقتصرًا على الذهاب بصحبة والدتها التي تدهورت صحتها إلى الأطباء..

سنوات من عمرها مرت ليكون نصيب كل من جرؤ على طرق أبوابها طالبًا النسب والمصاهرة، الطرد دون إبداء أسباب، فالجميع أتى طامعًا في الثروة والإرث، حتى شاع بين الناس أن إخوتها لن يزوجوها لأيٍّ كان ولو ملك من المال ما يفوق ممتلكاتهم..

سنوات من عمرها مرت، تزوج فيها جميع إخوتها، وعَمُر بيت والدها بكل طوابقه بإخوتها وزوجاتهم وأولادهم.

أصبحت "العمة أمل" هي السند لكل من تشتد عليها أوجاع الحمل والولادة، لكل من أتعبها وليدها وتشتهي بعض الراحة، لمن ضاقت بالمكوث في المنزل وتود الخروج مع زوجها لتستمتع ببعض الوقت، لتجلس هي بين جدران شقتها ووالدتها محاطة بأولاد إخوتها، تخدم الجميع بكل الحب، ويتناسى الجميع حقها في أن تتذوق لذة الأمومة والونس..

سنوات من عمرها مرت، شب فيها الصغار فأصبحوا شبابًا تملأهم الحيوية وحب الحياة، وأصبحت هي على أعتاب الخريف الذي لون خصلاتها السوداء بخيوط من فضة، وحفر حول بحار عيونها قنوات من التجاعيد التي طالما حملت دموعها المنسابة حزنًا على حالها ويأسًا من اللحاق بقطار الحياة الذي فاتها صعود أيّ من عرباته..

سنوات مرت نسيت فيها كيف تكون أنثى، واكتفت بالسعي نحو الجنة ببرها والدتها، التي دائمًا ما رددت أنها راضية عنها في الدنيا والآخرة، مشفقة عليها من حياة لم

تتمنها يومًا لعدو ولا حبيب، والدتها التي فارقت ولسانها يفيض بالدعاء لها حتى آخر لحظات حياتها..

يمر شريط ذكرياتها أمام عينيها الدامعتين، تدعو الله بالعوض في الجنة، تسمع أذان المغرب يأتيها من المسجد القريب، تحمل أشياءها وتنزل في عجالة لتلحق بالصلاة في وقتها، تنظر أبواب الشقق المغلقة، جدران المنزل الفاقدة للحياة، تكتم آهات وحدتها، وتستعين بالله وتناجيه..

دقت الساعة الخشبية العريقة في صالة شقتها لتعلن العاشرة مساء يوم جمعة لا تعلم بأي شهر هو ولن يمثل فارقًا في حياتها، فكل الأيام متشابهة.

حملت صينية العشاء إلى الطاولة بجوار سريرها، رغيف من الخبز، علبة صغيرة من الزبادي، بيضة مسلوقة، فقد عفت نفسها كل متع الحياة حتى الطعام، لا تشتهي منه إلا ما يعينها على صلب طولها.

فتحت التليفزيون على قناة للأفلام العربية القديمة، جلست تبكي مع هنادي أختها التي ذهبت في الوبا، وخالها الذي كان تخضب يديه بالدماء أيسر على نفسه من مدها بالبر والمعروف، تغلق القناة، لتتلو بعض الآيات والأذكار قبل أن تخلد للنوم وحيدة كما تعودت..

عشرات من رجال الشرطة يمتلئ بهم الشارع أمام المنزل العريق، يتساءل المارة عما حدث، تأتيهم الإجابة الصادمة من عسكري يقف قرب الباب:

- لقد ماتت السيدة التي تسكن المنزل وحيدة في سريرها منذ أسبوعين تقريبًا..

تساءل الجميع كيف يمكن لهذا أن يكون حقيقة؟ كيف لم يعلم أحد شيئًا عن موتها؟ أين إخوتها الرجال الأربعة وأبنائهم؟

لتأتي الإجابة الأكثر صدمة:

- لم يعلم أحد بوفاتها إلا عندما حضرت السيدة التي تنظف المنزل مرة كل شهر، والتي أعطتها نسخة من مفتاح الشقة، لتصدمها الرائحة الرهيبة التي قابلتها عند دخولها، وتتصل برجال الشرطة الذين حضروا على الفور لمعاينة الجثة والاتصال بذويها للحضور لدفنها..

ثلاثة أيام مرت والجثة تقبع في ثلاجة المشرحة تنتظر من يأتيها ليكرمها بالدفن، جاء إخوتها وأولادهم، ليقيموا بعد الرجوع من المقابر سرادقًا ضخمًا للعزاء يليق بهم، حضره أعيان البلدة وأكابرها، دار الصبية بالقهوة على الحاضرين، صدح صوت الشيخ بالتلاوة العذبة التي تليق بألوف الجنيهات التي سيتقاضاها، لينفض السامر في ساعة متأخرة من الليل..

في صبيحة اليوم التالي، جاء بعض الأقارب ممن تخلفوا بالأمس ليقدموا واجب العزاء في العجوز العزباء، ليجدوا أبواب المنزل قد أُغلقت بالجنازير، وعُلق على واجهته لوحة بالخط العريض كُتب فيها:

"منزل فاخر للبيع، لمن يرغب التواصل مع مكتب العالمية للمقاولات والسمسرة".

*****

السيد

جمعنا أبي من حوله كما اعتاد في صباح الجمعة من كل أسبوعٍ، جلسنا إلى مائدة الطعام العامرة بكل ما لذ وطاب، نتسابق لننهي طعامنا، ليقدم كل منا تقريره الأسبوعي عن مكاسبه التي حققها في تجارته، وكيف استطاع بسط نفوذه على مناطق جديدة، وإلا فيكون العقاب الرادع الذي لا هوادة فيه.

نحن أولاد يعقوب ملك ملوك الأسواق، تسير الدنيا طوع إشارتنا، رغباتنا أوامر على رقاب الجميع، نحتكر كل الأشياء في كل مكان، فالغذاء والدواء والسلاح لعبتنا، أينما وضعنا أرجلنا تفجرت من تحتها ينابيع الثروة، يمتد نفوذنا لكل أنحاء المعمورة.

نتخفى في ثياب الحملان، لنرعى قطيعًا من الذئاب المُهجنة، حتى صاروا كأودع ما تكون القطط، نلوح لهم بأطماعهم ليأتونا طائعين يتمسحون بأرجلنا لنلقي لهم ببعض الفتات.

سر قوتنا في جمعنا هذا تحت أرجل أبي، هذا الشيطان الماكر الذي يتلاعب من مجلسه بكل من ظن لنفسه كرامة، فلا يتركه إلا وقد جعله عبرةً لمن يعتبر.

يحوم من حولنا فَتيان، أحدهما يحمل أكوابًا من الشاي، والآخر بيده "منقد" فضي يمتلئ بالجمر المشتعل لأحجار الشيشة المتراصة أمامنا.

لا أذكر يومًا جرؤ أيٌّ منا على شرب الشيشة مضافًا إليها أيًا من المخدرات التي نتابع على سوق بيعها، إنها أهم تعليمات والدي: "لا تسمح لنفسك البشرية بجعلك عبدًا لأي من شهواتك، بل اجعلها سلاحك الذي تملك من خلاله أرواح مشتريها، حتى تسود العالم".

يتحدث إخوتي فيما بينهم، ليعلو صوت أخي الأصغر "صالح" معترضًا على تعدي أخينا الأكبر "حمدان" على فتاة من بنات الحي، يستثير بكلماته نخوتنا لنقف إلى جانبه، وندين ما صنعت يد أخينا.

لم يمهلنا أبي الوقت لنبدي أي ردة فعل على كلماته، فوضع كوب الشاي على الطقطوقة المذهبة بجانبه، ووقف متجهًا نحو صالح ناظرًا إليه بعين تقطر غضبًا.

وعلى عكس توقع صالح الذي ظن أنه بدفاعه عن الحق سيكون من الفائزين، كان من نصيبه الزجر والتعنيف:

- شايفك معترض على تصرفات أخوك الكبير يا صالح، مين أعطاك الحق تحاسبه وتقف قصاده؟

ليجيب صالح متلعثمًا:

- الجيرة ليها حرمة يا كبير، ودي بنت حتتنا، واجب علينا حمايتها مش أذيتها، وحمدان ظلمها وافترى على

أبوها وأخوها لما حاولوا يدافعوا عنها، ورماهم في الشارع واستولى على بيتهم...

يتردد صوت لطمة أخرست "صالحًا" وجعلته يبتلع ما بقي بفمه من كلمات، لتتسع ابتسامة حمدان أكثر، فهو على يقين من رضى والده عنه، فهو النسخة المصغرة منه ووريثه الذي يمشي على نهجه وخطاه في كل حين، لذا فهو مطمئن لحمايته له ومباركته كل أفعاله التي هي من تخطيط والده في الأصل، والذي أمره بما فعل، ليبطش بالضعيف، فيهابه القوي ويأتيه راكعًا.

انتهت صلاة الجمعة لنخرج من أبواب المسجد عُصبةً واحدة على رأسها أبي، يسير في شوارع حارتنا رافعًا نَبّوته عاليًا، يدق به الأبواب فتفتح عن رجالها حاملين على رؤوسهم الجباية، لا ينطق منهم أحد معترضًا، فمن يقدر على مواجهته بكل جبروته ونحن نسير من حوله.

يحملون الطيور لبيتنا ويأكل أولادهم من خشاش الأرض.

يخيطون الحرير لنا ويلبسون وأهلهم أجولة من خيش.

لا زواج إلا بمباركتنا.

ولا موت إلا بشراء الكفن من مصانعنا ولو بضعف الثمن..

يمشي بين الأزقة المتهالكة منازلها ضاربًا الأرض بعصاه فتخرج أسراب من التابعين مهللين بحياته مقسمين بعدله، فرحين بما آتاهم من فيض خيراته، طامعين في المزيد من القرب لينالهم من بركته نصيب.

يتفرقون على أعتاب جنته ليدخلها مطأطئ الرأس محني الجبين، يعبر أسوارها التي تستر ما وراءها، يقف أمام سيده ونحن من حوله نحذو حذوه، يضع كل منا ما حُمل على منضدته، لينظر إليها شزرًا، يمد يده ببعض

الفتات يلقيه في وعاء أبي ليحمله شاكرًا أنعم السيد، يلتفت إلينا لنغادر مرددين من خلفه أناشيد الولاء للسيد الذي يجلس متربعًا على عرشه من خلف الأسوار..

*****

سنوات الحب والمعاناة

ألقت برأسها المُثقل بالأفكار والأحلام على أرجل جدتها المتربعة دومًا فوق عرشها النحاسي المتوج بحرير من الجنة تزينه الزهور وبعض الطيور المُحلقة، تمد يديها الناعمتين تربت على رأسها، تفك ضفائر شعرها لتثور خصلاته الطويلة على جبينها، تحكي لها كيف كانت تملك خصلات جميلة كتلك في صباها، تتحسس جبينها ورأسها لتبدأ رُقْيَتها ككل مساء، تبدأها بفاتحة الكتاب، ثم تُتمتم بالمعوذتين تليها الإخلاص لتكون الخاتمة بآية الكرسي والكثير من الدعوات، تُعيذها من عيون شياطين الإنس والجان، وتظل تمطرها بدعواتها حتى تغفو قريرة العين..

مع اقتراب الساعة من الثانية بعد منتصف الليل، ومع صوت سميرة محسن وهي تشدو "كان لي صديق فيلسوف بأقوال الحكماء شغوف"، تهزها بلطف وتناديها لتخرجها من عالم أحلامها:

- فلتصنعي لنا كوبين من الشاي بلبن، ولتسرعي فلم يتبقَّ إلا دقائق قليلة حتى تبدأ الحلقة الجديدة من المسلسل الإذاعي الذي نتابعه..

تمد يدها إلى صندوق من الورق المقوى، يشبه في محتوياته صندوق الدنيا حيث تَجد كل ما تتخيل وما لا تتخيل، لا يفارق يمناها أبدًا، ولا يجرؤ أحد على الاقتراب من محتوياته، تخرج كيسًا بلاستيكيًا شفافًا يحوي بعض " القُرص الطرية بالعجوة" التي لا يحلو شرب الشاي بلبن إلا معها، ولا تكتمل السهرة إلا بها..

تشتعل نيران غضبها حين تسمع أحداث المسلسل الإذاعي لهذا اليوم، وكيف يزين الشيطان للبعض الكيد لتدمير البيوت العامرة بالحب، ليس إلا من باب الفساد

في الأرض، كيف تُشعل الغيرة النار في قلوب المحرومين من الحياة، تمد أصابعها اللينة الرقيقة الناصعة البياض إلى مفتاح غلق الراديو لتغلقه بعدما تحول مزاجها للنقيض، لتبدأ -وللمرة التي لا أذكر عددها- في سرد تفاصيل قصتها التي مر عليها ما يقرب من الأربعين عامًا، لكنها لم تستطع يومًا الغفران أو النسيان..

أرى بعيونها الغائمة بسحابة من المياة البيضاء التي حالت دون رؤيتها تفاصيل الحياة من حولها لمعة شوق كلما أتت على ذكره، هذا الذي فارقها منذ عقود، لكنه يومًا لم يفارق قلب ابنه عمته وأول وآخر نصيبها في الحياة، تنساب الحكايا من بين شفتيها الباسمتين فيضًا من حنين، تصفه شابًا عريض الجسد، كثيف الشعر، رحيم القلب، تخبرني كيف كان يتصنع الحجج الواهية لزيارة منزلهم، وكيف خرج ثائرًا حين سمع نبأ من جاء لخطبتها من والدها، ليعود في اليوم التالي بشبكة قيّمة من الذهب، ليقف أمام الجميع معترضًا أنه أولى ببنت عمته من أي غريب.

تتجسد كلماتها أمامي صفًّا طويلًا من الجِمَال تحمل متاعها لبيت زوجها مصحوبةً بفرقة من المزمار الصعيدي والطبل البلدي والحطابين.

وكيف تجمعت القرية بعد عدة أيام عن بَكْرَةِ أَبِيهَا لتشهد موكب الزفاف الذي ظل لأيام كثيرة شُغل نساء القرية في جلساتهن أمام البيوت وتجمعهن أثناء ملء الماء من الطلمبة البعيدة، والرجال على الجسور في الغيط وعلى المقهى الوحيد في القرية الصغيرة.

تغلب قوة شخصيتها التي حيرت الجميع دمعة أفلتت لتجري على وجهها الرائع الملامح، حين وصلت بذاكرتها للمعاناة التي عاشتها لا لذنب إلا لغيرة حمقاء، كانت السبب في وضع شرطٍ مجحفٍ يربط استمرار زواجها بأن يتزوج أخوها من أخت زوجها، في عادة بالية لا خير فيها، ليأتي رفض أخيها ليكون الطامة الكبرى، تتحول حياتها من بعده إلى سلسلة من الإهانات، وتنقلب سعادتها

جحيمًا تُشعل حماتها ناره، لا تلقى بالًا لصلة رحم ولا تأخذها شفقة بأم حفيداتها..

تمتد يداها تتلمس أرجلها المعطوبة منذ عقود، تحكي عن بداية المأساة، وكيف وصل بهم الحال لضربها حتى قاربت على الموت، كيف خارت قواها فلم تستطع السير على قدميها مرة أخرى، تراها ممزقة بين الدعاء على من ظلمها وكان سببًا في عجزها وخراب بيتها، وبين دعوات لم تتوقف يومًا لهذا الحبيب الممزق بين حبه لها ولبناته وبين بره لامرأة أجبرته على فراقها لترضى عنه..

يشع وجهها ألقًا وهي تحكي كيف أصر على الاعتناء بها حتى بعد الفراق، كيف اصطحبها إلى طبيب شهير في مدينة بعيدة، كيف حملها على ظهره ليصعد بها إلى الطبيب في الدور الثالث من البناية، كيف كان يتفنن في إكرامها طوال حياته، وكيف ردد على أسماعها في كل وقت عندما تعترض على هداياه: "أنت ابنة خالي قبل أن

تصبحي أم بناتي، أنت أول من سكن القلب، ولم ولن تفارقيه يومًا حتى الممات..

سنوات مرت لم تُجدِ فيه جلسات العلاج الطبيعي والكهرباء نفعًا، حتى اللجوء إلى المشايخ والمعالجين بالقرآن لم يمنع أقدار الله من النفاذ، خارت القوى، حتى بات مجرد النوم الطبيعي ككل البشر معضلة وعذاب لا ينتهي، أصاب عظامها التيبس، قلت حركتها وأصبحت الحياة تمضي عليها جالسةً حتى عند نومها، لا تهنأ بفرد جسدها على فراش، ولا يكف لسانها عن الدعاء على من آذاها، ولا لمن أكرم مثواها.

لا أذكر يومًا لم تكن فيه محبةً للحياة بكل تفاصيلها، تنتظر دخول وقت الصلاة لتسرع بصلاة فرضها، لا تنام إلا وإذاعة القرآن الكريم تصدح بأجمل التلاوات في الراديو الملازم لها لعقود، ويكون اليوم عيدًا عندها عندما تضع في مسجلته شريطًا لواحد من المشايخ يمدح رسول الله، ويحكي قصص الهلالي والعاليا، أو قصة

عشق صاحبت تفاصيلها الربابة والدف لتخلد أبدًا على ألسنة المداحين..

حتى بعد أن كلَّ البصر وغامت الرؤية، كان العوض في ذكائها الفطري المتقد دومًا، كلما أردت رؤية ابتسامتها المشرقة، جلست بجانبها، أطلب منها أن تقص عليّ تفاصيل آخر لقاء بينها وبين وجدي -رحمه الله- حين زارها قبل موته بثلاثة أيام، تضع يدها على فمها خجلةً تداري ضحكةً تفيض عشقًا، وهي تقلده يقول لها:

- مش هتيجي أردك بقى وترجعي تنوري بيتي تاني قبل ما أموت؟

لتتبع ضحكاتها دموعًا مصحوبة بفيض من الدعاء لا ينقطع أبدًا..

أقف اليوم أمام سريرها لأراها ولأول مرة منذ سنوات طوال تنام قريرة العين، باسمة الثغر، لا تشتكي ألمًا، ولا تخاف وجعًا، يعبق الجو من حولها برائحة الياسمين التي تعشقها وعلمتني أن أعشقها أيضًا، أراها ضنت على قلبي

الصحبة والونس، فتسرع الخطى فرحةً بلقاء الأحباب الذين سبقوها، أتلمس يديها، أناديها أحتاج رقيتك جدتي فقلبي يتألم، فلتتركيني أضع رأسي على رجليك لأنام مرة أخيرة، فلتطربي قلبي بسماع دعواتك ككل صباح بالفلاح والصلاح، استحلفكِ بالله أن تطرحي عنك هذه الأكفان ولتنهضي لتضميني..

*****

لوكاصولا

تعالى صوت دقات كعب حذائها المدبب على الأرضية البورسلين المصقولة كالمرآة، وهي تمشي الهوينى إلى جانب والدتها الأنيقة، بعد أن اجتازت بوابة المبنى العريق المكون من خمسة طوابق، والمُصَمم على هيئة فيلا يحيط بها سور ببوابة ضخمة تعزله عن محيطه في هذا الحي الراقي الهادئ، متجهةً إلى الداخل؛ تحثها والدتها على المضي قدمًا للحاق بموعدهما الذي اقترب.

شردت أفكارها في المكان الذي أصابها بالرهبة، ضخامة المبني، نوافذه المغلقة بحواجز من الحديد المزخرف الذي حولّه في عيونها لمجرد سجن يلجأ له الأثرياء للخلاص من ذويهم المزعجين، ألوانه القاتمة التي تجثم على روحها فتصيبها بالنفور، التجربة المريرة

التي خاضتها لمرات عِدة دون داعٍ أو جدوى، إلا الخلاص من اعتراض والدتها التي لم ولن تتوانى عن اللجوء لأي شخص يساعدها في الحفاظ على مظهرها الأرستقراطي الذي أساءت له نوبات جنونها المتكررة من وجهه نظرهم.

التفتت نحوها العيون جميعها رجالًا ونساءً، تأسرهم إطلالتها الساحرة، جسدها الأفروديتي الجذاب، ابتسامتها الواثقة، خصلات شعرها المتموجة كشلال من الشيكولاته اللذيذة، ولون الفيروز الساكن أحداقها، ليكمل روعتها وكأنها لوحة رُسمت بيد فنان أراد أن يُجسد الرقة في كائن بشري.

جلست بجانب والدتها على أحد المقاعد المريحة في جانب القاعة القصي، بعد تحية موظفة الاستقبال الأنيقة المبتسمة دومًا بدبلوماسية، والتي أخبرتها أن عليها الانتظار بضع دقائق حتى يحين موعدها مع الطبيب، تطلعت حولها بضيق، ثم مدت يدها إلى

المنضدة أمامها لتتناول واحدة من مجلات الأزياء العالمية عليها، تتصفحها لتقتل الملل الذي بدأ يتسرب لروحها.

ابتسامة عريضة ارتسمت على وجهها دون سبب واضح حين التفتت إلى جانبها حيث المقعد الشاغر، وكأنها تتحدث إلى أحدهم، أخذت تتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة، لينتقل بصرها بين محدثها وصفحة المجلة التي يتصدرها فستان جريء التصميم يتألق بلون أحمر دموي قان، لتبتسم مرة أخرى وتخرج هاتفها المحمول وتلتقط صورة له؛ لتحتفظ بها حتى تستطيع شراءه فيما بعد، تخرجها لمسة من يد والدتها على كتفها من حالة الشرود التي تعتريها، تتبادلان النظرات القلقة من أمها والمرحة اللامبالية منها، فهي لم تعد تهتم بما يدور بخيال من حولها حول حالتها النفسية والعقلية المشكوك بأمرها.

شتت انتباهها صوت مرتفع قادم من الخارج، فتاة جميلة رغم المعاناة الواضحة على تفاصيل جسدها

المرهق، يحاول أخوها ووالدتها إجبارها على دخول بهو الاستقبال، تنتحب بشدة، تتشبث بالفراغ من حولها في محاولة فاشلة للهروب من بين أيديهما دون جدوى، تتمتم بكلمات مبعثرة خالية من كل معنى مفيد، إلا الهلع من هذا الذي سيقتلها وتحارب للخلاص منه، ليسرع بعض العاملين بالمصحة من الرجال بالسيطرة عليها، واصطحابها باتجاه ممر مغلق بباب خشبي ضخم، لتلتفت قبل دخولها إليه بخطوة نحو صولا تستجديها مرددةً فلتساعديني قبل فوات الأوان..

جاهدت لتتماسك وتمنع سيلًا من دموع غزت عينيها لتخفي إحساسًا بالضعف والضياع تشاركه مع الفتاة المسكينة، أسرعت بالقيام من مقعدها متجهةً صوب الفتاة قبل أن يُدخلوها عبر الباب المُقبض المُزين بنقوش سريالية، تتأمله بتوجس، تخشى المجهول المتواري خلفه.

مدت يدها نحو الفتاة المنهارة تلمس كتفها لتفاجئها الفتاة بالاندفاع نحوها والتمسك بيدها بشدة وهي تردد وأمارات الهلع ترتسم على وجهها..

- ساعديني.. فلتنقذيني منه.. اطلبي منه أن يساعدني..

جذبها مساعدو الطبيب بسرعة ليعبروا الباب ويغلقوه من خلفهم، لتعود صولا إلى حيث كانت تجلس، مفكرة في ما تقصده الفتاة بكلماتها الغريبة، ثم أخذت تتلفت من حولها، تنظر تارة إلى والدة الفتاة المنتحبة، وتارة إلى والدتها الشاردة، ثم تنظر نحو الفراغ إلى جانبها بعيون دامعة وهي تتمتم: "أنا بخير.. سأكون بخير".

التفتت لها عيون الجالسين في صالة الاستقبال الكبيرة، نظرات شتى تتفاوت بين القلق، الخوف، الشفقة، وبعض الحرج الذي ارتسم على وجه والدتها التي تحاول مواساة والدة الفتاة المنهارة والتي بادلتها

النظرات ولسان حالها يخبرها: "أنت أيضًا تحتاجين للمواساة، فحال ابنتك لا يختلف كثيرًا عن ابنتي".

صوت موظفة الاستقبال يكسر جمود اللحظة، حين اقتربت منهما لتخبرهما أن الطبيب بانتظارهما الآن في غرفته، وقفت موظفة أنيقة مبتسمة أخرى إلى جانبها لتصطحبهما إلى الداخل، عبر نفس الممر المقبض الذي دخلت منه الفتاة منذ قليل.

تقدمتها والدتها مارةً عبر باب الغرفة التي تنافس في أناقتها كل المكان، دار بصرها في أركانها، المكتب الخشبي الضخم القابع في منتصف الحائط الأيمن ومن خلفه نافذة زجاجية ضخمة تتزين بالستائر الرائعة، المكتبة الضخمة التي تحتل الجدار المواجه لباب الدخول والمكتظة بآلاف المجلدات والكتب المنظمة بأسلوب دقيق مميز، في حين يقع الشيزلونج الشهير الخاص بالأطباء النفسيين في مواجهة المكتب إلى الجهة اليسرى من الغرفة.

تتناثر هنا وهناك بعض التحف والتماثيل واللوحات التي تعود إلى عصر النهضة، موزعة بإتقان وحرفية بالغة لتكمل الصورة، وتأسرك رائحة عطرية مميزة هي مزيج من العود والصندل لتعطيك الانطباع بالانتقال إلى حقبة زمنية عريقة.

يجلس على كرسيه الجلدي الضخم خلف المكتب، ينظر بعيني صقر متربص، رجل وسيم رغم أمارات السن البادية على تفاصيله، الكثير من الشعيرات البيضاء التي تناثرت في غرته بعشوائية محببة تخبرك أنه قد تجاوز الأربعين وبدأ خمسيناته دون شك، تضفي ملابسه الرسمية على ملامحه وقارًا حاول الاحتفاظ به بابتسامه عريضة رسمها على محياه بإتقان في محاولة منه لإخفاء انفعالاته حين وقع بصره عليها، هذه الحورية التي خفق قلبه لمرآها، وثارت داخله غريزة الصياد التي يحارب للسيطرة عليها حفاظًا على سمعته ومركزه المرموق..

جلست الأم على أحد الكرسيين أمام المكتب، وصولا على الكرسي المقابل لها، بدأ الطبيب الحديث معرفًا نفسه لهما؛ كونها زيارتهما الأولى للمكان، نظر إلى كارت التعريف بالمريضة يطلع على بياناتها، تطلع نحو الأم محييًا..

- مرحبًا سيدتي.. مرحبًا وصال.. أنا دكتور مراد.. تشرفت بمعرفتكما.

قاطعته وصال بعدائية لا تعلم لها تفسيرًا:

- اسمي صولا.. لا تنادِني بسواه.. فلا أحب اسم وصال هذا..

تبسم دكتور مراد معجبًا بشخصيتها المتمردة التي تتوارى خلف مظهرها الرقيق، بدأ حديثه مع والدتها طالبًا أن تقص عليه ما مشكلة وصال التي كانت سببًا في طلبها مساعدته، متعمدًا تجاهل غضبتها من تكرار الاسم، ولا تعلم أنه قادم من كلمات ودموع والدتها العزيزة.

استرسلت والدة صولا في الحديث، تحكي لدكتور مراد رحلة معاناة ابنتها والتي بدأت منذ عامين، وبالتحديد بعد احتفالها بعيد ميلادها العشرين، حين أصابتها حالة من الاكتئاب الحاد، انعزلت على أثرها بغرفتها، تصل الليل بالنهار نائمةً، ترفض الخروج منها، ترفض الطعام والحديث لعدة أيام متواصلة، حتى أصيبت فجأة بحالة من الهستيريا المرعبة، تحدّث أشخاصًا خياليين من حولها، وتؤذي نفسها حتى تحول جسدها الهزيل للوحة من الألوان القاتمة..

قصت عليه كيف اصطحبتها في زيارات متكررة للعديد من أكبر مراكز الطب النفسي دون جدوى، تشخيصات متفاوتة ما بين الفصام والاضطراب ثنائي القطب، دوامة من الأدوية تزيد من معاناتها، تصيبها بالجمود، تلقيها داخل بئر من النوم الإجباري لتزيد معاناتها وانفصالها عن الواقع..

أخبرته عن اقتراح خادمة أختها السودانية بالذهاب إلى أحد المشايخ والذي تعرفه من بلدتها، فبالتأكيد هناك سبب خفي هو المتسبب بهذه المعاناة.

قصت عليه تفاصيل تفاوتت بين جلسات الزار والرقية الشرعية للتخلص من السحر والحسد، وكيف باءت جميعها بالفشل، حتى كان اليوم الذي اصطحبت ابنتها لواحد من المغاربة الذين ذاع صيتهم حتى وصل الآفاق، والذي ثار في وجههما بمجرد دخولهما خلوته، طاردًا لهما ومحذرًا إياها من المحاولة مرة أخرى في هذا الطريق..

نظرات تنطق بالاستهجان من الطبيب والسخرية من صولا التي التفتت ناظرةً نحو المكتبة بابتسامة عريضة، تبعتها بإيماءة خفيفة برأسها، وكأنها تنظر إلى من يقف هناك، تبادله الحديث بتمتمات خافتة غير مفهومة وكأنها لغة خاصة بها..

ضاقت نظرات الطبيب نحوها، صمتت الأم ناظرة إليه ولسان حالها يخبره أن انظر إليها، ها هو ما أقصده يحدث أمامك الآن.

نظرات خاطفة من مراد نحو صولا يفحصها بعيون خبير متمرس، يدون ملاحظات خاطفة على صفحة من ملفها المفتوح على المكتب أمامه، نظرات عيونها المرتابة، هلاوسها البصرية والسمعية التي تظهر بوضوح في حركة عيونها المتوترة، تمتماتها التي لم يفك طلاسمها بعد، كل هذه التصرفات بدأت ترسم في مخيلته نوع المرض الذي تعاني منه صولا الفاتنة..

تعمد مراد تجاهل وجود وصال، وأخذ يلقي بالأسئلة على والدتها، عن تاريخها المرضي وهل تعاني من أي أمراض مزمنة، هل تشابهت حالة ابنتها مع أي حالة في العائلتين للأب والأم من قبل، فالوراثة تلعب دورًا كبيرًا في بعض الأمراض النفسية وقابلية الإنسان للإصابة بها.

أغمضت صولا عينيها وأسندت رأسها لظهر المقعد المريح، في محاولة منها للمحافظة على انفعالاتها وثورتها التي باتت على وشك البدء، كلمات والدتها تنكأ جراحها، تذكرها بمعاناتها التي استمرت لعامين، الكثير من الأدوية النفسية التي تصيب جسدها بالخدر وعقلها بالتشتت، إحساسها بالضعف أمام إلحاح والدتها التي جعلت منها فأر تجارب سواء للأطباء أو الدجالين، لم تحاول يومًا الحديث إليها، سؤالها عن حالها، ما تشعر به، كل هذا غير مهم، لقد حللت المشكلة، ووضعت الحلول المفترضة حتى تنهيها، أما صولا فوجودها وإحساسها شيء ثانوي لا قيمة له..

دمعه وحيدة خانتها وتسللت عبر جفونها المغلقة، حين تذكرته.. والدها الحبيب، الأقرب لقلبها من البشر أجمعين، تحولت دمعتها لابتسامة مطمئنة وهي تشعر به يلمس كتفيها كما كان يفعل والدها، تتذكر حديثها لوالدها عنه وكيف ضمها إليه في حنان جارف، لم يتهمها بالجنون، ولم يحولها لدمية بين يدي النصابين.

تتذكر ابتسامته وهو يخبرها: "أعلم أنك فتاة مميزة صولا، أعلم ذلك جيدًا، لكن فلتكوني أيضًا فتاةً عاقلة ولتحتفظي بهذا سرًا فيما بيننا، ولا تخبري به أحدًا أبدًا".

أفاقت من ذكرياتها على صوته الأجش يهمس بجانب أذنها أن رفقًا بقلبي صولا، فأنا على وشك الغضب..

لتعتدل في جلستها، تنتقل بنظراتها بين الطبيب ووالدتها التي صمتت منتظره رد فعلها على اقتراح الطبيب أن يستضيفها في مصحته بضعة أيام؛ لمتابعتها عن كثب، والاطمئنان على استقرار حالتها النفسية..

ظهر الرفض جليًا على وجه صولا، وأوشكت براكين ثورتها على الانفجار، لكن أوقفتها كلماته..

لا بأس حبيبتي، لا دَاعِيَ للرفض.. فلتبقي هنا لبعض الوقت ولنعدها إجازة من العالم الخارجي المقيت.. فلتوافقي من أجلي حبيبتي..

التفتت نحوه بنظرات حائرة لم تكلف نفسها عناء إخفائها عن زوج العيون التي تراقبها بمنتهى التركيز، فلا يعنيها ما يجول بخاطرهم، لتغزو قسماتها ابتسامة آسرة حين أخبرها أنه سيكون إلى جوارها كل الوقت طالما هي هنا..

ردت صولا بإيماءة من رأسها بالموافقة على سؤال والدتها عن رأيها في البقاء من أجل إجراء فحص شامل، ولم تعقب أو تهتم بنظرة الظفر التي اشتعلت في عيون مراد كمن ربح الجائزة الكبرى في اليانصيب لهذا القرن..

خرجت والدتها من الغرفة بعد عدة دقائق بصحبة الممرضة المرافقة لتوصلها للاستقبال، وتطمئنها ألا تقلق فكل ما ستحتاج إليه ابنتها الجميلة من أدوات أو ملابس سيتم توفيره في غضون دقائق معدودة، مع تأكيد بالتواصل بينهم وبينها في حال أي طارئ، لتبقى صولا وحدها مع طبيبها، تنتظر أن ينتهي من تفحصها، ليدور بينهما حوار بريء المظهر، حاول فيه الغوص داخل بئر

أسرارها والاطلاع على أدقها، فكان ردها عليه الصمت المشوب بالقلق، والذي تحول لعصبية مفرطة حين قام من مجلسه واقترب منها محاولًا لمسها بحجة أنه يطلب منها الهدوء..

لحظات من الترقب أعقبها ضغطة على جهاز الاستدعاء على مكتبه، لتدخل واحدة من الممرضات ليطلب منها اصطحاب صولا لحجرتها في طابق الضيافة الثاني، وسلمها ورقة ببعض الأدوية لتتناولها في الحال..

دخلت إلى الغرفة الفندقية الفخمة خلف الممرضة المبتسمة، أعجبت بأثاثها الراقي وديكوراتها البسيطة، قررت أن تعطي لنفسها الفرصة لتستمتع بالإقامة فترة وجودها في هذا المكان، وتعدّها هدنة من ضغوط الحياة تحت الميكروسكوب في منزل أهلها، فحتى أنفاسها تُعد عليها، ضحكاتها، دموعها، وخاصة همهماتها المريبة التي تشعل فتيل التوتر في قلب وعقل والدتها..

- لها كل الحق صولا.. فمن تهبه الأقدار حورية جميلة مثلك لا بد وأن يحيطها بكل العناية كل الوقت..

أطلقت سراح ضحكة كنغمات الموسيقى، ونظرت إلى جانبها حيث الفراغ وأخذت تردد:

- "Demens adoro, mea"[١]

تحت نظرات الممرضة المتعجبة، ونظراته الولهى التي تعشق..

دخلت ممرضة أخرى إلى الغرفة وبيدها صندوق تحمل فيه بعض أدوات العناية الشخصية الجديدة المغلقة لتسلمها لصولا التي أخذت تقلب في محتوياتها لتخرج منها بيجامة رقيقة باللون الوردي، لتطلب منها الممرضة ارتداءها فهي الزيّ الموحد لجميع النزيلات بالمكان، ثم فتحت الدولاب الخشبي لتضع الصندوق داخله لحين حاجتها إليه..

شكرتها صولا حين فرغت من ارتداء ملابسها، لإصرارها على مساعدتها على تبديلها، وتعجبت من

حرصها على استلام هاتفها وحقيبتها الشخصية، والتأكد من عدم وجود أي أداة حادة بحوزتها كي لا تؤذي نفسها، ثم ناولتها بعض الأقراص، وطلبت منها تناولها بكوب من العصير اللذيذ، لتشعر بعد دقائق قليلة ببعض الخدر يتسلل إلى جسدها لتقرر اللجوء إلى سريرها الوثير لتنال قسطًا من الراحة بعد يوم من الضغط العصبي الشديد..

الثانية بعد منتصف الليل.. في الغرفة المجاورة، حيث تسكن "ملك" -الفتاة التي قابلتها وصال عند وصولها- والتي تتشابه تفاصيل غرفتها مع كل الأخريات في المبنى، أرضيتها من الباركيه، نفس لون الطلاء، نفس الأثاث الفاخر، مُرتب بحرفية في نفس الأماكن، دولاب ضخم، مكتب صغير من فوقه بعض المجلات والأوراق الفارغة دومًا، سرير يتوسط الحائط المقابل لبابها، تنسدل الستائر القيمة على نافذتها المغلقة بسياج من حديد مزخرف..

تراها نائمة في سريرها تضم ركبتيها إلى صدرها متخذةً وضع الجنين، من يراها يظنها تغط في نوم عميق، إلا من يدقق في ملامح وجهها فيرى خيطًا من دموعها المنسابة على وجنتيها، ارتجافات متتابعة تنتابها لا تعلم لها سببًا، أمن البرد أو الخوف أم تأثير الأدوية التي يصر الطبيب مراد أن تتناولها بانتظام كل ليلة قبل نومها..

تنتحب متذكرة ما تعانيه منذ أحضروها إلى هذا المكان المقيت الذي تتمنى الهروب منه لأبعد نقطة في الكون، ومع كل محاولة تجد من يعيدها هم أقرب الأقربين لها.

تتساءل لم يُلقى بنا إلى هذا العالم المصاب بالجحود والغلظة؟

ما الجدوى من عمر يمر في معاناة لا نهائية كُتبت على جباهنا، فلا نجد منها مفرًّا؟

وما المصير الذي يجب أن نخطو نحوه في هذه الأرض الموحلة بالخطايا؟

تزداد ارتعاشات جسدها مع سماعها صوت باب الغرفة يفتح بهدوء شديد، تحاول الحركة دون جدوى، تحس بشلل تام يسري في كامل جسدها، إحساس مقيت بالعجز يكوي روحها، تعتصر عيناها من هول الفزع الذي أحست به حين امتدت يده إلى جسدها يتلمسه، تتحرك أصابعه صعودًا على ساقيها، يقتحم بكل دناءة خصوصيتها المستباحة في حرم هذا الشيطان اللعين، تجاهد لتلتقط أنفاسها، لتغزوها رائحة عطرة المميزة فتصيبها بالغثيان، تعلم أنه هو من يستبيح شرفها كل ليلة، من حمل على عاتقه مساعدتها حتى تشفى، لكنها لا تملك دليلًا يدينه..

بعد بضع ساعات من المعاناة، تستيقظ في الصباح كمن دهسته سنابك الخيول، تصرخ، تحكي لمن حولها كيف تصاب بالشلل التام فلا يتحرك منها إلا بؤبؤ العين، كيف تشعر بقدومه، تراه يحجب عنها ضوء الحياة حين يطل عليها من علٍ، كيف تلفح أنفاسه الساخنة وجهها وكأنها ريح من الجحيم، كيف يكشف عن ساقيها بكل

هدوء، كيف تتسلل يداه الآثمة لتستبيح حرماتها وهي تصارع عاجزة عن تحريك ولو أصبع واحد لتدافع عن نفسها..

تتفجر براكين ثورتها أكثر حين تُقابل كلماتها بنظرات الشفقة لا الغضب، حين تلوم العقول هلاوسها المزعومة، حين تحملها الأيدي مرغمة لترمي بها بين يدي من اغتصب إنسانيتها ظانين أن بين يديه النجاة..

استيقظت صولا على صوت الصرخات نفسها، فلم تكد تنساها، هي نفس الفتاة التي طلبت مساعدتها، قفزت خارجة من سريرها مسرعةً، مدت يدها لباب الغرفة تحاول فتحه دون جدوى، لم تعلم قبل اللحظة أنهم يغلقون عليهم الأبواب كالمحكومين بالشقاء.

أخذت تضرب الباب بيديها وتشارك الفتاة الصراخ، حتى فُتح الباب فجأة لتراها محمولة بين الأيدي للمرة الثانية، نادتهم ليتركوها، نعتتهم بالهمج المجانين.

لتلتفت الفتاة نحوها، تصيح بصوت جرحه صراخها:

- لا أحد يصدقني.. فلتهربي.. انجي بنفسك قبل فوات الأوان..

ليغلقوا باب الغرفة من خلفهم بعد دخولها، ولتصطدم صولا عند التفاتها نحو غرفتها بدكتور مراد الواقف خلفها يتأملها بصمت غريب..

الثانية من بعد منتصف الليل، مرة أخرى.. يُفتح باب غرفة صولا بهدوء شديد، يخطو القادم بحذر لص متمرس يعلم بالضبط أين يجب أن تقف قدماه، يتجه نحو سريرها بعيون يسكنها بريق الظفر بفريسة مغرية، يقف لثوان يتأملها، لوحة ملائكية تتجسد أمامه ليسيل لعابه أكثر، يشع بياض بشرتها في الضوء الخافت، شعرها الغجري ينساب كشلال من حولها، يمد يده ليجذب الغطاء الحريري الخفيف الذي يستر جسدها وهو يمنّي نفسه بما تتسارع له نبضاته الماجنة..

لحظة كلمح البصر، شعر خلالها وكأن عاصفةً اقتلعته من جذوره، ليرتطم بعنفٍ بالجدار إلى جانب الباب، يشعر وكأن عظامه قد صدمتها سيارة مسرعة لتسحقها دون شفقة، يخيل إليه أنه يسمع زمجرة حيوان غاضب، فيستند إلى الحائط ليقف ويفتح الباب خارجًا من الغرفة وكأن الشياطين تلاحقه، يدخل إلى المصعد ويغلق بابه، يتلفت من حوله كالمجنون، يمضي في الممر خارجًا من بابه المزخرف متجهًا نحو مكتبه ليغلقه من خلفه بالمفتاح، ويجلس على المقعد ليلتقط أنفاسه متخيلًا أنه قد نجا من عدوه المجهول..

يشعر ببرودة شديدة تجتاح الغرفة من حوله، يشتم رائحة فراء غريبة، تخترق أذنيه صوت تمتمات بلغة غريبة لا يفهمها، يتلفت من حوله، يحاول التركيز فيرى المثير من الخيالات تتجسد على الجدران، لتبدأ محتويات الغرفة بالتبعثر بيد خفية، آلاف الكتب تتساقط من رفوف مكتبته العملاقة، لتهبط إلى الأرض في دوي متفاوت، تتساقط اللوحات عن الحوائط، تتبعثر

الأدوات من فوق سطح المكتب بغضب، يحاول الصراخ فيجد صوته وقد احتبس بداخله كالأخرس، وكأنه في كابوس مقيت لا يستطيع الاستيقاظ منه..

اتسعت عيناه رعبًا حين رآه يتجسد أمامه، يحرك رأسه لأعلى ناظرًا لجثته العملاقة بكل الرعب، يحاول الاستعاذة بالله من الشيطان فيأبي عقله أن يستجيب.

يقترب منه هذا العملاق الأبيض، ينظر إلى رأسه ليجده يحمل تاجًا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، ترتسم ملامح الفزع على وجهه حين انحني نحوه مرددًا بلغة لاتينية قديمة:

- Ego sum Lucas rex, Ego Ursus magnus.

Quis tu me lacessis"٢" ?

ليكررها بصوت كالرعد مرة أخرى:

- أنا لوكاس الملك.. أنا الدب القطبي العظيم.. من أنت لتتحداني؟!

لتبدأ لحظات من الجنون المطلق، الذي لم يخطر قبلًا على قلب بشر..

حالة من الهرج تجتاح المكان لتحول هدوءه المعتاد إلى مزيج من الصرخات الهستيرية، أصوات سيارات الشرطة والإسعاف، سياج أمني مشدد يُطوق المشفى النفسي الخاص، فلا يدخل إليه أو يخرج منه كائن.

تتجه الأنظار الشاخصة كلها نحو مكتب الدكتور مراد، أو بمعنى أدق ما كان يومًا مكتبه قبل أن يتحول أنقاضًا، وكأنما ضربه إعصار مدمر..

في الخارج ينقسم العاملون بالمكان مجموعات، يقفون في انتظار مثولهم للتحقيق في هذه الجريمة البشعة، لتتفق أقوالهم جميعًا على قول واحد، لم نر أو نسمع أي شيء غير معتاد، فقد عم الهدوء المكان كالعادة أثناء الليل حرصًا على راحة النزلاء، إلى أن فوجئنا بصرخات بددت سلام الصباح الهادئ، والتي أطلقتها عاملة التنظيف حين فتحت باب مكتب مالك المكان

دكتور مراد، لتُصعق بما رأت وتسقط مغشيًا عليها، ومن بعدها جاء مسؤولو الأمن لتتسع عيونهم هلعًا ويغلقوا الباب، ويمنعوا أيًا كان من الاقتراب حتى وصول الشرطة..

خلف باب المكتب المغلق، تعلو الهمسات بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وأفعاله، رائحة كبريتية خانقة تنتشر في الجو لا يعلم أحد مصدرها، يتخضب كل شيء من الفوضى المنتشرة بالداخل بالدماء، المكتب، الشيزلونج، الستائر، الحوائط، أرفف المكتبة الفارغة من كل محتوياتها التي تناثرت على الأرض الخشبية، ليحل محلها الكثير من الأشلاء البشرية المُبعثرة هنا وهناك في مشهد يقف أمامه الشيطان حائرًا كيف استطاع مخلوق حي فعلها.

ترى جسد الطبيب مراد وقد تحول إلى قطع صغيرة من اللحم المفتت، لم يتبق منه شيء إلا يداه القابعة هناك على المكتب ممسكةً بصندوق متوسط الحجم

يمتلئ بالملفات المرتبة بعناية، داخل كل واحد منها تقرير خاص نزيلة من نزيلات المشفى، يوضح تفاصيل مرضها، حياتها، تشخيص حالتها، والكثير جدًّا من الصور العارية في أوضاع مخلة مع الطبيب مراد.

نفس القصة تتكرر في كل ملف داخل الصندوق، ترسم معالم قصة خيانة يندي لها الجبين، حين استباح هذا المراد أجساد مريضات بالجنون، يستغل عدم إدراكهن لما يحدث، وسيادته على حياتهن، حتى كان الملف الأخير الذي لم يكن فيه غير ورقة واحدة فقط، كتب عليه بخط عريض مميز

"صولا" حالة فصام شديد، وهلاوس سمعية وبصرية..

لتغلق من بعدها المصحة النفسية العريقة ومعها ملف الطبيب مراد الخائن، الذي هامت روحه بين جنبات هذه الغرفة، ليقتص منه لوكاس للأبد..

ورقة بفرة

جلستُ منزويًا في ركن قصي أنظر بوجل إلى هذا المشهد اليومي المتكرر، شعورٌ بالعجز يخنق الحياة بقلبي حين أتبادل النظرات الملتاعة مع أمي التي تجاهد لحماية وجهها من بطش أبي المعتاد كلما سيطر السكر على خلاياه، أو لعبت أوراق البانجو التي اعتاد تدخينها بعقله، ليتحول إلى آلة تدمير لكل ما حوله، حتى زوجته، وأنا.. ابنه الوحيد الذي سطر مفردات الرعب والكره داخلي حتى بِتُّ أمقت النظر إليه.

سنوات مرت عليَّ، كل يوم منها يحترق قلبي لسماع شهقات أمي التي تجاهد لكتمانها، تنزوي في ركن قصي، تبكي حظها العاثر وأحلامها المسكوبة على أرض هذا البيت الملعون، تتمنى الهروب بعيدًا عن لعناته إلى أقصى الأرض، أو حتى إلى الجحيم، فحتمًا سيكون أكثر نقاءً من هذا الجُب الدنس الذي تسكنه.

انطبعت بذاكرتي نظراتها التي تقطر بغضًا لهذا الجاثم إلى جوارها كجثة عفنة فاح منها مزيج من رائحة الخمر والبانجو المقيتة، بعد عودته ككل ليلة من سهراته المشبوهة في هذا المركب النيلي الشهير، المعروف بنوع رواده من مدمني الشهوات وعاشقي كل محرم..

قصص طالما ترددت على أسماعي لتغتال براءة روحي، يتجسد أمامي صورة هذا المحمول على الأكتاف بعد أن أجهز على كم من المخدرات يكفي ثلاثة رجال ويزيد، ورغم الإعياء الشديد تتشبث أصابعه الغليظة بزجاجة من الخمر يناضل ليرفعها إلى فمه مرة أخرى حتى يفرغ بجوفه ما تبقى بداخلها من رشفات قليلة.

ومع كل اعتراض تجرأ به أحدهم يومًا، يتعالى صوت البومة المسماة بجدتي ناعقًا بالخراب في كل ركن، تبث سمومها في قلب وسمع ابنها "المسطول" دائمًا، وسوسة لا تنقطع، تنتهي كل مرة بأبي ممسكًا بأمي يكيل لها سيلًا من اللكمات والركلات؛ تُحول وجهها وجسدها لساحة معركة من طرف واحد، يتركها بعدها غارقةً في

دمائها وبقايا جدائل شعرها وملابسها الممزقة؛ كي لا تجرؤ مرة أخرى على الاعتراض، وليقدم للشيطانة دليلًا ملموسًا أنه "ذكر ملو هدومه"..

سنوات مرت لا شيء تبدل في هذا البيت الملعون خلالها سوى بعض الأمراض التي احتلت أجساد ساكنيه، لكنها لم تنجح يومًا في منع الغي الساكن قلوبهم المريضة..

كثرت مجالس الخوض في أعراض كل من أحسوا بنقائه، انطلقت ألسنتهم كالحيات تسعى في كل حدب، تقذف الناس بالباطل بعيوبهم؛ ليوهموا أنفسهم أن الجميع سواء..

سنوات مرت بين نفس الجدران، على نفس السرير الذي شهد مأساتنا، دموعنا، صرخاتنا، وقفت أمي تنظر إليه كخرقة بالية ملقاةً على فراشه، جسد عاجز لا يقدر على شيء، فم متخشب لا ينطق بالسوء كعادته، لم يبق منه على قيد الحياة إلا عينان تنظران نحونا، تنطق بالكراهية التي تشتعل داخله..

سحبت مقعدًا قريبًا، انهالت عليه نظراتي الساخرة من عجزه كالسياط التي طالما ألهب أرواحنا وأجسادنا بها، أمامي على المنضدة طبقٌ يحتوي بعض فتات البانجو، إلى جانبه دفتر من ورق البفرة، اشتريتها بما استوليت عليه من المال المتبقي في المنزل والذي فشلت أمي في إخفائه مني لشراء بعض الأدوية التي يحتاجها هذا المدعو بأبي..

قررت أن أجلس بجواره كما اعتاد أن يجلس بجوار أبيه ليشاركه سهرات الكيف، قررت أن أصبح ابنًا بارًا وأشاركه متعتي، جلست إلى جواره، حملت بيدي كأسًا من الخمر، وباليد الأخرى سيجارة محشوةً بالبانجو، أنظر نحو أبي بتشف غريب متمتمًا: "فلتستمتع أبي بحصاد غرسك"، ثم أخذت أنفث الدخان في وجهه المصدوم، ليختلط دخان البانجو بآخر شهيق تنفسه، لتظل بقايا رائحته المحرمة سجينة رئتيه إلى الأبد..

آل ياسين

ترتفع ضحكات يونس وياسين وهما يعدوان أمام والدتهما التي تحاول كف دموعها، ومشاركتهما مرحهما الطفولي، فما زالا صغيرين لا يستوعبان ما يدور من حولهما من أحداث عظام..

تنظر إلى زوجها الجالس إلى الكنبة العتيقة بجوار النافذة وبجواره يضع عكازه، لا تدري أتشعر بالسعادة بعد ما تابعته على مدار اليومين الماضيين من أخبار على كافة القنوات العالمية ومواقع التواصل الاجتماعي عن الانتفاضة الجديدة، التي جاءت لتأخذ ثأرها وزوجها عن معاناة سنوات الفقد والعجز..

تتابع بشغف لحظة بلحظة، تنادي زوجها لتخرجه من عالم الشرود الذي يسكنه، تقص عليه فرحةً كالأطفال كيف نجح مجموعة من شباب المقاومة المسلحين بتقوى الله والأمل في النصر وبعض الأسلحة

الخفيفة، في جعل عدوهم اللدود أضحوكة أمام العالم أجمع..

تفتح التلفاز على قنوات الأخبار، تناديه بكل الفخر:

- انظر.. لقد أخذ الشباب بثأرنا أخيرًا.. اليوم تبرد نار قلبي على أولادي وفراقهم..

تضحك في وجهه، وتخفي في قلبها نوبة من الفزع تنتابها كلما فكرت فيما هو قادم لا محالة ردًّا على هذه العملية المباركة..

تبتسم حين تتذكر هذا الفيديو الذي يحطم فيه المناضلون أسطورة الأسوار العازلة والقبة الحديدية، بسلاحهم الجوي المصنوع من بعض المظلات والدراجات البخارية الخفيفة، تصفق كالأطفال فرحة: "إنها الإرادة الحرة والكرامة التي تصنع المستحيل بكل تأكيد".

تتنازعها المشاعر بين السعادة والخوف، غصة تعتصر قلبها وهي تتابع على هاتفها الصور والفيديوهات

التي تعرض ردود الأفعال الوحشية التي بدأت تنهال على المدنيين من كل حدب وصوب، بحرًا وجوًّا، وكأن الصفعة التي تلقوها قد أفقدتهم ما تبقى من آدميتهم إلى جانب ما فقدوا من هيبة مزعومة..

تلتفت نحو الجدار من خلفها، تنظر بعض الصور المعلقة بترتيب رقيق، صورة شقيق زوجها وزوجته وأولادهما الذين ارتقوا منذ سنوات عند الانتفاضة الأولى، وأخرى تجمعها وزوجها مع ثلاثة أطفال يشع من وجوههم نور ملائكي، كانوا حصاد سنوات زواجها الأولى قبل أن يكتب على جبينها فراقهم في قصف صاروخي استهدف بعض السيارات في شرق القطاع، لم يأبه الأنذال لكونها سيارات مدنية، لم تهتز لفرد منهم ذرة من إنسانية وهو يوجه قذائفه لتحصد حياة الأبرياء شيوخًا، نساءً وأطفالًا، تتمتم من بين دموعها: "لعله لقاء قريب أحبتي تحت ظل العرش".

تضم صغيريها لصدرها، تداعبهما لتتردد ضحكاتهما البريئة من حولها علها تنسيها القلق المتعاظم بقلبها..

ينتزعها صوت طائرات يتعالى في الأفق، تبعه أصوات انفجارات تقترب رويدًا، يهرول زوجها يعرج بقدمه المعطوبة، يضمهم إليه محاولًا درء شعور العجز عن حمايتهم وهو يعدو باتجاه سلم المبنى الذي اكتظ بالسكان المحاولين الهبوط لمكان آمن بعيدًا عن بطش القذائف المتساقطة.

لحظات مرت ثقيلة تترنح، اهتزت بعدها الدنيا، تمتزج الصرخات بصوت تحطم الجدران، النوافذ، الأثاث، وعظام البشر، ليسود الظلام ويزداد علو الصرخات من أسفل الأنقاض في المربع السكني المكلوم..

ساعات أربع مرت حتى استطاعت قوات الصليب الأحمر الوصول للمنطقة المنكوبة، يقف أفرادها وسط الحطام تفيض عيونهم من الدمع، ينظرون تلالًا من الحطام على مد البصر، يتبادلون نظرات حيرى:

- ما مصير مئات الأسر تحت هذه الحجارة، كيف لنا أن ننقذهم ورصيدنا من المعدات قد أوشك على النفاد، هل تتحول هذه المنازل المتداعية قبورًا لأصحابها يسكنونها كما ضمتهم في الحياة الدنيا؟!

يعدو بعض الشباب هنا وهناك، مستعينين بكلاب الإنقاذ المُدربة للبحث عن ناجين.

يصرخ ليث طالبًا المساعدة، يشير إلى مبنى على بُعد خطوات قليلة، حيث وقفت الكلاب تنبح بعصبية، يقترب ومن تبقى من شباب الحي بصحبة رجال الإسعاف، يتعالى صوت بكاء طفل تحجبه الجدران المتداعية، يردد بصوت مخلوط باللوعة والجزع:

- فلتنقذني أبي، أنا هنا بجوار أمي تمسك بيدي..

ساعة أخرى قد مرت في سباق مع الزمن، استطاعوا تحريك بعض الحطام والوصول لياسين، يتشبث بيد أمه في الظلام وفي اليد الأخرى لعبته المفضلة، لم يدرك أن هذه اليد التي أمسك بها طوال ساعات هي كل ما تبقى له

من أم سُحق جسدها وتحول إلى أشلاء أسفل عمود إسمنتي منهار.. احتضنه ليث بقوة يمنع عنه رؤية ما حوله من فظائع كفيلة بقتل طفولته البريئة، يتملص ياسين من بيد يديه مرارًا يتساءل عن أمه، أبيه، توأمه يونس، وهذا الرجل الطيب الذي جلس بجواره تحت الأنقاض، ليثير عجب المحيطين، أي رجل هذا الذي استطاع الجلوس بجواره في هذه الفرجة الضيقة التي حمت جسده الصغير من السحق، ليكمل ياسين ببراءته الطفولية:

- وين راح عمو، كان جالس جنبي، يمسك بيدي، يحدثني، يضيء نور وجهه ظلمة المكان، يتلو آيات القرآن لأرددها من خلفه، وأخذ يردد:

﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

الوريثة
"إكفي القِدرة على فُمها"

خرجتْ من شقة خالها التي أنهى تجديدها لتوه تغلي مراجل الحقد في نفسها المريضة، انتقلت بين الغرف تنظر بين أركانها، ترصد كل جديد، تتمنى لو أن كل هذه الأشياء لها، تدعو بزوالها عن زوجته وأولاده، تُحدث نفسها لِمَ كان من حظ هذه أن تنتقل من الفقر في بيت أهلها؛ لتتنعم بأموال خالها التي ورثها عن جدها، ويكون نصيبها الحرمان من هذه الثروة؛ لبخل أمها عليها وعلى إخوتها، لم يشفع له أنه من رباها لتكف أذاها عنه وأهل بيته، تتساءل ما ذنبها ألا تملك من المال ما تستطيع به شراء مثل هذه المفروشات الغالية؛ ولن تملكها ثانيةً بعدما علم زوجها بسرقاتها له ولغيره من المحيطين بها،

وأصبح يشتري لها من القوت ما يكفيها بالكاد هي وأولادها..

مشت في السوق تنتقل بين صفوف المحلات الضخمة التي تعرض واجهاتها الزجاجية أفخر المفروشات والسجاد، تقتحمها -بجسدها المختفية ملامحه، الضخمة تضاريسه حتى لتظنها كتلة مربعة من الشحم تمشي على قدمين- تسأل عن أسعار هذه وتلك، لتخرج تجر أذيال حقدها، تسب التجار ممن لا يغريهم لزوجتها في التعامل ومحاولاتها اليائسة لتخفيض الأسعار مقابل بعض التنازلات..

يلفت نظرها محل في الزاوية البعيدة، أنواره خافتة على غير عادة المحلات المنتشرة في السوق، يجلس أمام بابه جهاز أشعة إكس متجسد في هيئة بشرية لرجل أنثوي الملامح، طويل القامة، نحيل البنية، أصلع الرأس، يمشط شعره بطريقة مضحكة ليبدو كمهرجي السيرك القومي، لا يمر من أمامه أي كائن يحمل

كروموسومات أنثوية إلا ويمسحه بنظراته النهمة، يلقي بكلمات تحمل معاني بذيئة لكل عابرة؛ باحثًا عمن تتجاوب مع تطلعاته وتشبع فوران شهوته..

عدلت من مظهرها البائس، وزادت من إحكام حزام وسطها لتبدي سوءاتها أكثر وأكثر، واقتربت تمشي الهوينى كاشفةً جزءًا من ساقها وهي تمر من أمامه، وكعادته وبخبرته بهذا الصنف الرخيص في سوق النساء، قام من مجلسه لينادي عليها:

- اتفضلي يا مدام عندنا تشكيله ممتازة هتعجبك قوي.

تصدح بضحكة يفر من هولها إبليس مستغفرًا، لتدخل معه المحل الضيق الذي استطاعت المرور من بابه بالكاد، ولتبدأ الصفقة..

دخلت المنزل على أمها تملأها السعادة، وقفت تحكي لها عن خبرتها التي جعلتها تشتري زوجًا من السجاد بنصف ثمنها، وكيف لم يقو الرجل العبيط على رفض

طلب لها، وتخبرها أنها في حال سأل زوجها عمن اشتراها ومن أين لها بالأموال فستخبره أنها هدية من أمها.

لتنهرها أمها المسنة عاتبةً:

- وتشتري لنفسك يا بنت الكلب وتنسي أمك، والله لو ما أخدت منهم واحدة لأقول لجوزك على مشيك البطال.

*****

المارد الحمار

ترددت دَقة صارمة بطرف العصى الخشبية الغليظة على باب مخدع ابنه الأكبر لتكسر سكون الليل في جنبات البيت العتيق، تبعتها ثوانٍ من الصمت، ثم صوت الباب يُفتح ليخرج ولده مسرعًا، ملبيًا نداء والده الصامت، يوحي إليه بإيماءة من رأسه أن ينادي إخوته في عجالة، فما بقي من الليل إلا بضع ساعات، في حين ينتظرهم الكثير من العمل الذي يجب أن ينتهي قبل الشروق..

دقائق قليلة مرت ليتحول المنزل الكبير إلى خلية من النحل، يتجمع الرجال في "المقْعد الكبير" حول الصينية النحاسية العملاقة التي امتلأت بخيرات الله، الفطير المشلتت المصنوع بالزبد الفلاحي، العسل الكهرماني اللون، الجبن القريش اللذيذ، أطباق من الفول والبيض

المقلي الغارق بالسمن، تتسابق الأيدي هنا وهناك لنيل نصيب وافر من الطعام يعينهم على ما ينتظرهم من عمل شاق في ري أرضهم الزراعية استعدادًا لموسم زراعي جديد.

وقف الحاج صالح منتهيًا من طعامه حامدًا الله على فضله، ليقف من خلفه كل أولاده تباعًا، يُخرجون "العربية الكارو" المحملة ببعض المعدات الزراعية، ليركب كل منهم على جانب منها، في حين يمسك الأخ الأكبر باللجام بقوة، ليقود الركب في الظلام نحو الحوض القِبلي حيث سيبدأ العمل، من أمامهم يركب والدهم على حماره الذي برغم ضخامة جثته وارتفاعه، إلا أن قدمي الرجل الضخم الذي يمتطيه تكادان تلامسان الأرض..

تتعالى ضحكات الفتيات الواقفات في الحظيرة على سلفتهن الصغرى التي وقعت أرضًا أثناء مطاردتها لذكر ضخم من البط أرادوا ذبحه ليلحق بأقرانه، تنهرهن

حماتهن الواقفة بجانب الباب الكبير محذرةً إياهن من اللهو، فلن يغفر لهن أزواجهن تأخُر الطعام لو عادوا قبل أن ينضج "الزّفَرْ".

خرجت كل فتاة تحمل في يديها زوجًا من البط، تُدلي به داخل "البستله" المملوءة بالماء الساخن والموضوعة فوق كانون يشتعل بداخله الحطب، ثم تُلقي بها إلى الطشت النحاسي العملاق لتبدأ عملية نتف الريش، والتجهيز للطبخ..

ساعة مرت من بعد شروق الشمس، لتملأ الدنيا بالنور والدفء، ويمتلئ البيت العامر بأصحابه وأولادهم وأحفادهم بروائح الطبخ الفاتحة للشهية.

تتعالى أصوات الرجال قادمة من بعيد، تُسرع كل زوجة لملاقاة زوجها، تجهز له الماء اللازم للغُسل، وتقف بالقرب حاملةً المنشفة والثياب النظيفة؛ لتساعده على ارتدائها بكل الرضا..

جلست الحاجة "أنيسة" مع أولادها وأحفادها في صالة البيت الكبيرة، منتظرين وصول زوجها الحاج "صالح" الذي تأخر على غير عادته، لتسأل ولدها عن مكانه، فيجيبها أنه وقبل الفجر بساعة أو يزيد تركهم يعملون في الحوض القبلي وتوجه ناحية شجرة الجميز العتيقة على أطراف الأرض، تنظره أمه ببعض القلق، لكنها تفضل الصمت والصبر حتى حين..

يقطع كلماتهم صوتٌ عالٍ لحمار عفي يصلهم من بعيد، وصوت ضحكات والدهم ترتفع بقوة على غير عادته الصارمة، يسرع الجميع للخارج لملاقاته عند الباب الخارجي للدار، ليجدونه يركب بغلًا غريب الشكل، شرس المظهر، ضخم الجثة بطريقة عجيبة، يتناسب حجمه مع الرجل الضخم الذي يعتليه والذي تعدى طوله المترين ببضعة سنتيمترات..

تحلق الإخوة حول والدهم، يسألونه لمن هذا البغل الشرس؟

فيزداد ضحكه حتى تحول لقهقهات نادرًا ما سمعوها، وهو يقص عليهم حكاية هذا الحمار الحمار..

لمحته عدة مرات متفرقة في الأسبوع الماضي عند شجرة الجميز العجوز، حذرته أن ينصرف ولا يعود مرة أخرى للهو في هذا المكان، لكنه تكبر وزاد عناده وأبى أن يطيع أمري.. رأيته بالأمس مرة أخرى في نفس المكان يلهو ولا يُلقي بالًا لأحد، وكنت قد نويت على تأديبه، لمست "المِسَلة" الحديدية في سيالة جلبابي، أخرجتها وأخفيتها بكفي، مشيت بهدوء واقتربت منه حتى وصلت بجواره وهو ينظرني بتحدٍّ.. غرزت المسلة برقبته في لمح البصر قبل أن يتمكن من الهرب، وأخذت عليه عهدًا، ووعدته أن أحرره في المساء شريطة ألا يفعلها مرةً أخرى ويعبث في أرضي ويفسد زرعي..

تبادل الإخوة النظرات فيما بينهم ثم إلى أبيهم الواقف واثقًا بجوار هذا الكائن الغريب، تنتقل نظراتهم بين المسلة المغروزة عميقًا في رقبته، وبين نظراته الغاضبة

لأبيهم وكأنه يفهم ما يقول، ضحك الأب من تعبيرات وجوههم المذهولة، استدار ينظر البغل محدثًا إياه:

- فلتهدأ حتى أتناول طعامي، فيومنا حافل بالمشاوير المهمة التي ستصحبني فيها..

جاء المساء والجميع في انتظار عودة الحاج صالح التي طالت لساعات، دقائق مرت ثقيلة حتى حضر الأب، ودخل نحو حوش المنزل، أنزل متاعه عن ظهر المارد البغل، أخذ يتلو عليه بعض آيات من القرآن، ذكره بالعهد بينهما ألا ضرر ولا ضرار، وألا عودة مرة أخرى ليعيث فسادًا في أرضه وزرعه، ثم قام بنزع المسلة الحديدية من رقبته بسرعة، لتمر ثوان قبل أن يبدأ في التلاشي كأنه لم يكن واقفًا هنا منذ لحظات..

*****

عين براهما

اختارت أمي أن نجوب العالم هربًا من لعنتي الغريبة، أو لعلها اختارت التجوال لتؤكد لنفسها أن الحياة الطبيعية لم تخلق لي يومًا..

هبة غريبة اكتشفتها والدتي، منذ سنوات عمري الأولى، حين أبت الحروف أن تتقافز على لساني الطفولي الرقيق كما بقية أقراني، وعلى الرغم من كوني عبقريًا في حفظ الأشكال وتكوينها مهما بلغت صعوبة تصميمها، فقد افتقرت إلى القدرة على التواصل مع المحيطين بي، حتى معها وهي الأقرب لنفسي من العالم أجمع، أو لنكون أكثر دقة " فقد فشلت في التواصل مع المحيطين بي من البشر فقط".

اصطحبتني والدتي التي أصابتها الحيرة من تصرفاتي الغريبة، ففي حين يستطيع الأطفال الآخرون التواصل

البصري واللفظي مع الآخرين، كنت أهرب بنظراتي من أي تواصل، أفضل الانعزال في ركن الغرفة لأجلس لساعات أكرر خلالها حركة اهتزازية رتيبة كما بندول الساعة، لتشتعل ثورتي في حال حاولت إيقافي أو إخراجي من حالة الشرود التي تسيطر عليّ.

جاءت كلمات الطبيب الذي اصطحبتني لزيارته صادمةً لقلبها كأم ترى صغيرها يعاني من مرض لا أمل يرجى في الشفاء منه، خاطبها الطبيب بعد ساعة من الفحوصات والاختبارات:

- إنها حالة متقدمة من ال "Autism" ، إنه التوحد في صورة نادرة، فعلى الرغم من الصعاب التي ابتلي بها هذا الصغير إلا أنه يمتلك ذاكرة بصرية جبارة، لم أقابل مثلها من قبل عند من يشبهه.

نصحها الطبيب بالاعتناء بهذا الصغير العبقري، لربما تتحول هذه النقمة يومًا ما إلى نعمة، إذا نجحت في الأخذ

بيديه الصغيرتين، وانتشاله خارج هذا العالم المجهول المعالم الذي يسكنه.

من هنا كانت بداية رحلتنا نحو الكمال، لم تبخل أمي عليّ يومًا بأي شيء يمكن أن يضيف لمهاراتي ولو القليل، فاستطاعت في خلال سنوات قليلة الوصول بي لحال مقبولة مقارنةً بمن يعاني من نفس المُعضلة.

أتذكر حين تركتني ذات صباح بجانب أدوات الرسم الخاصة بها لتصنع لنفسها كوبًا من القهوة السريعة التحضير، لتُصدم عند عودتها بصورة رائعة التفاصيل لإناء زهور موضوع على الطاولة المقابلة لي، صورة قد يستغرق أمر رسمها من فنان محترف بضعة أيام على أقل تقدير.

أصبح شغلها الشاغل هو البحث أبدًا عن كل ما يمكن أن يلفت انتباهي، لأترك قوقعتي لدقائق معدودة أقوم خلالها بتقليده بمنتهى البراعة والدقة.

كانت نقطة التحول الكبرى حين أرادت مكافأتي بزيارة لإحدى صديقاتها التي تعلم شغفها بكل ما هو قديم، لتعرض علينا القيام بجولة في منزل جدها القديم والذي يضم من التحف النادرة أقيمها، ليصدمهما رد فعلي الغريب حين وقفت لأول مرة أمام تمثال من الخزف أتحدث لكيان غير مرئي لهما، بكلمات مبهمة لا يعلمون لأي لغة تنتمي..

تسمرت نظراتي على الإناء الرائع بنقوشه الدقيقة بلونها الأزرق الخيالي، سبقتني يدايّ نحو الإناء أتلمسها بأطراف أصابعي، فقد كانت وسيلتي الأحب لاكتشاف الأشياء من حولي.

أخرجت من شنطة كتفي أدوات الرسم التي لا تفارقني أبدًا، تتقاطع الخطوط أمامي في سرعة عجيبة في قلب ورقة الرسم البيضاء، اعتقدت أمي أنني سأعيد رسم الإناء كما المرة الماضية، فتركتني غارقًا في أفكاري أتساءل:

أهذا الشخص المتجسد أمامي هو مالك الإناء، أم أنه شخص تسكن روحه الإناء لسبب ما؟

جلست تتحدث إلى رفيقتها لبعض الوقت، لآتيها حاملًا الورقة، أمد بها يديّ نحوها، وعيناي تتعلقان باللامكان، لتبعثر ثباتي شهقةً فزعة صرخت بها صديقتها، تسرع أمي باحتضاني بشدة لتهدئة روعي، لتغرق في الصمت الذي خيم عليها حين رأت في أوراقي صورة شخص يتضح من ملابسه أنه ينتمي لحقبة مر عليها بعض القرون على أقل تقدير زمني، تبعثرت الكلمات على لسان صديقتها وهي تسألها:

- كيف استطاع رسم هذه الصورة؟ أين رأى هذا الوجه تحديدًا؟ إنها صورة جد جدتي الذي عاش ومات في اسطنبول منذ قرون.

جذبت صديقتها يدها وأسرعت نحو الطابق العلوي لتشاهد صورة لنفس الشخص الذي رسمته للتو معلقةً على الحائط في لوحة زيتية أثرية ضخمة، نَزَلَت السلم

مهرولة، لتطوقني يداها لنعود إلى منزلنا بسرعة البرق بعد أن أخذت الصورة التي رسمتها لتخفيها.

سنوات طويلة مرت منذ هذه الحادثة، تكررت بعدها مرات ومرات، حتى بت مثار الأحاديث، انتقلت من كوني طفلًا يعيش ظروفًا خاصة، إلى شخص غريب الأطوار على علاقة بالعالم الآخر، حتى اضطرت أمي للفرار مرات ومرات، تنتقل من بلد لآخر خشية ما قد يحدث لي في المستقبل إذا شاع أمري.

لا أعلم هل ما يحدث لي مرض عقلي عضال حقًا كما يدعي الأطباء الذين زرتهم حول العالم ولعقود من الزمان، أم هي لعنة أصابتني منذ صغري لترافقني حتى الموت، صرت أراها في كل مكان من حولي، منازل، ملابس، لوحات، أي مقتنيات ارتبطت بها أرواح أصحابها.

اعتقدت لفترة من الزمن أني قد شُفيت أخيرًا من تخيلاتي، لأقف الآن أمام لغز آخر أشد وطأةً على نفسي،

فبعد معاناتي مع رؤية أرواح من ملكوا الأغراض يومًا، وفي بعض الأحيان أرواح ساكنيها. ها أنا اليوم أتحدث للأشياء نفسها، تحكي لي تاريخها الطويل لأحتفظ به بين جدران عقلي الصاخب دومًا، فحروفي الهزيلة التي امتلكتها بعد عناء، لا تقدر على ترجمة كل هذه المعاناة حين سمعتها تحدثني عن نفسها الثائرة، توحي إليّ أن أنصت لقصتي عسى تهدأ شياطيني حين أُفشي سرها.

عشرات من البشر يتجمعون من حولها في صالة المزاد الأنيقة هذه، تتربع على عرش من قطيفة موشاة باللون الذهبي، يهمسون بانبهار تأثرًا كلما انعكست الأضواء على لونها الأسود الفريد، يُحدث كل منهم نفسه بأمنية امتلاكها، أن تصبح أجملَ مقتنياته، وأندرها، أن تُزين جِيد معشوقته، أو يختال بامتلاكها بين أقرانه، يتلألأ من حولها طوق من الماسات البيضاء لتزيد من روعة حضورها، لا يعلمون ما خلف هذا المظهر الخلاب من مصير مظلم، تحمله بين ذراتها أينما حللت..

تُسر إليّ بشعورها الطاغي بالحنين إلى موطنها، حيث نعمت بالسلام بين جنبات هذا الضريح الهندوسي العريق، بين البخور والترانيم حتى سلبها هذا الراهب الضال وأخفاها بين طيات ملابسه، ليبيعها لتجار الألماس الأجانب بثمن بخس، لتبدأ رحلتها التي استمرت لعقود حافلة باللعنات..

نعم هي.. إنها عين براهما العظيم أو كما سمعتم بها يومًا إنها ماسة أورولف السوداء..

مائة وخمس وتسعون قيراطًا من اللعنات تداولتها الأيدي، تجوب العالم، تتأرجح بين روما وروسيا وأمريكا، والمصير واحد، تحفة تزين تاجًا، أو تلتف حول جيد حواء نفد رصيدها من الحظ لتلتصق بها لعنتها السوداء.

تنصهر روحي في عالم لا يُرى، ينساب عقلي كما الماء من بين أصابعي، التي لم يفك أسره من حوله أحداث وأشخاص لا فرق بين واقعها وخيالها..

تخبرني عن واحدة من معشوقاتها، توحي إلى عقلي وصفها، لتتجسد أمامي في مشهد أقرب إلى الجنون، وكأنها تنظر من خلال عين براهما لكون تسكنه الآلهة، تمتد يدها لتلمس نجوم السماء، تخال نفسها وقد خلعت عباءة البشرية لترقى لصحبتهم، تصعد أعظم الصروح أمامها لتقترب من منازلهم، تخطو نحو الخلود، لتنطلق صرخة الحقيقة حين تقترب الأرض بسرعة جنونية، فيكون الارتطام الذي يعقبه صمت مخضب ببريق أورولف السوداء..

أرى الآن عاشقةً أخرى تخطو نحو مصيرها، تقف هناك بين الجموع، تنظرها بعيون ينعكس بريقها على تفاصيلها الرائعة، أراها تقترب منها، فتشتعل بداخلها شياطينها الساكنة منذ عقود، فاتنة هي تنعكس صورتها على زجاج الصندوق الذي تسكنه، يقف بجوارها هذا الكهل الثري مفتونًا بها، يومئ برأسه لهذا التاجر الجشع الذي يبتسم بخبث وهو يخط بيده عقد انتقال ملكيتها لهما.

يتنفس الصعداء بعدها، فها قد زال الخطر، وانتقلت الماسة السوداء لمالكها الجديد، وها هو ينظر بخبث لهذه الفاتنة بعيون تنطق يقينًا بالوداع..

زفاف مؤجل

تفترش الأرض في صالة منزلها الواسعة، ومن حولها جمع غفير من النساء المتشحات بالسواد، تتفاوت حالاتهن بين البكاء والصمت والحديث الهامس، لكن تجمعهن نظرات متسائلة مصوبة نحوها، كيف تبدو بهذا الثبات والصمت؟ لا تنوح، لا تبكي، لا تشق الجيوب ولا تخمش الوجوه في هيستيريا كما هو متوقع ممن يمر بمثل حالها، لقد فقدت للتو ابنها الوحيد، والأخ البكري لإخوته البنات، عائل الأسرة من بعد وفاة والده منذ سنوات طويلة، فكيف تتلقى هذا الخبر المشؤوم بكل هذا الثبات؟!

تتطلع من حولها بعيون زائغة، لا ترى سواه في كل الوجوة، تراه واقفًا بطوله الفارع، وجسده الذي غزاه النحول، في ركن الصالة يتحدث في هاتفه إلى خطيبته ووجهه ينطق بالسرور، فقد أوشك على إكمال أثاث شقته التي أهدر من عمره سنوات خمس لتصبح كما

يتمنى، تنبض كلماته لها بالسعادة منذ حدد مع والدها موعد الزفاف بعد شهر عند عودته من رحلة سفر عمل عاجلة..

تنظر إلى الجانب الآخر، تراه يجلس لتناول الطعام يضحك ويشاكسها بكلماته المرحة، يتهكم على نفسه حين رأى بعض الشعيرات البيضاء قد غزت غرته ليبدو أكبر سنًا، وكيف قد سُرق العمر على حين غفلة منه، يتحول نظرها لباب المنزل لتراه يحمل حقيبته ويستعد للخروج على وعد بلقاء قريب، ويوصيها أن تتمم كل ما ينقص شقته ومحتوياتها حتى عودته..

تعبس حين تتذكر زيارة زوجها البارحة في أحلامها، جاء يربت على كتفها ويواسيها، فلم تتخيل أن يكون الابتلاء في قرة عينها، تتخيله يقف أمامها الآن وسط المعزين باسمًا إلى جوار ولدهما المتهلل الوجة بشرًا وسرورًا فتتسع ابتسامتها، ويهمهم الحاضرون أن صدمة الفقد قد افقدتها صوابها..

تنهمر الدموع سيلًا حارقًا من بين جفون شاخصة لا يرتد طرفها، تتجسد أمامها كلمات الرجال أمام مشرحة المشفى حيث وقفوا منتظرين استلام جثمانه، يتهامسون كيف أصاب سيارته الجنون على الطريق الجبلي المنحدر، ففقد السيطرة عليها، كيف صارع لمسافة كيلومترات ليخفف من وطأة الاصطدام عله ينجو، وكيف جاءت النهاية مع اصطدامه بصخرة حولت سيارته وأحلامها وجسده إلى أشلاء..

تسمع ضحكاته من حولها فتتلفت باحثةً عنه، فقد مر الوقت ولم يعد بعد لتقيم الأفراح لأجل عرسه، تقف فجأة وتهرول متجهةً إلى غرفته، تفتح دولاب ملابسه، تغزو حواسها ريحه فتسكرها، تبحث بين ثيابه بعيون غائمة بالدموع، تتلمس بدلة عُرسه المعلقة بين الثياب، تحملها بين كفيها، تضمها إلى قلبها، وتلتفت نحو بناتها الملتفات حولها نائحات، تجذبها بعض الأيدي لتخرج من الغرفة، يحاولون تخليص البدلة من بين يديها عبثًا.

تخرج إلى صالة منزلها لتنادي بصوت أصابه الجنون:

- حضروا الشربات يا بنات.. بسرعة.

تناديها ابنتها الكبرى من بين أنات وجعها العظيم:

- الصبر يا أمي.. الصبر..

تلتفت إليها معاتبة:

- أين الشربات والحلوى؟ لقد أوشك أخوكِ على الحضور ليبدل ملابسه، يجب تقديم الحلوى للمعازيم..

يرتفع النحيب من كل الحاضرين، تنهرهم: "من يريد البكاء فليفارقنا، فالليلة عُرس الغالي، سأزفه بنفسي إلى داره".

تلتفت صوب الباب لترتسم على ثغرها أجمل ابتسامة، ترحب بابنها وزوجها القادمين من بعيد، تمد يديها ضامة إياهما إلى قلبها، لتسقط بين الجموع وقد اختارت اللحاق بهما باسمة مستبشرة..

ترنج أخضر وحذاء

تقف في نافذة منزلها تنظر بعين الحب لابنها الأقرب لقلبها، ملاك هادئ الملامح والأفعال، تكاد أصوات العصافير المتجمعة على الشجيرات في بداية الشارع تعلو صوته، تتواثب دقات القلق في قلبها لو غاب عن ناظرها لدقائق معدودات.

بدلت ملابسه بهذا الترنج الأخضر الذي يليق بخمريته، ألبسته حذاءه الجديد، عطرته ورتبت خصلات شعره الحريري المتلون بسواد ليالٍ غاب عنها ضوء القمر، نظرت إليه طويلًا تتأمله، دمعت عيناها لغصة تعتصر قلبها.

يبادلها نظراتها بعيون سكنتها الملائكة، ترتسم على شفتيه ابتسامة بطعم الجنة، حمل بين يديه الصغيرة هذه الحقيبة ليذهب بها إلى أبيه في آخر الشارع ويعود

سريعًا كما أوصته، ووقفت هي في نافذتها تتأمله بنظرات مودعة..

تهرول في الشارع حيث تسكن، وفي الشوارع المجاورة، ومن خلفها زوجها ذاهلًا يبحث في كل الوجوه، في كل زقاق مظلم، في كل مصرف أو ترعة تقابله، ينادي كل المارة والجالسين أمام منازلهم، يسألهم عن ولده الصغير، هل رآه أحدكم؟ هل مر على مجلسكم؟

وكلما جاءه الجواب بالنفي زاغ بصره وقلبه، وأحس بثقل كالجبال يجثم على روحه، تجمع من حوله الجيران والكثير من رجال وشباب القرية، كلٌ يبحث في سبيل مختلف، يحاول التماسك من أجل زوجته التي تتبعه منتحبه صارخة، يرى أشباح الجنون تطوف من حولها، فقد مرت ساعات طوال منذ اختفى وليدها، ولم تسفر رحلة البحث عنه سوى بحقيقة واحدة -وكما تكرر حدوثه من قبل في بلاد مجاورة- لقد خُطف ولده الصغير على يد العصابات المنتشرة مؤخرًا والتي تسعى كالضباع

الجائعة خلف أي صغير يوقعه قدره المشؤوم في طريقهم، ليصبح بضاعة تباع بثمن بخس في طريق بلا عودة، وضياع غير محدد المعالم..

تجلس في السيارة بجوار النافذة تتطلع للأشجار المتراصة على جانبي الطريق، كأنها تتسابق عدوًا كأيام غياب وليدها التي قاربت سبع سنوات، ما زالت ترعى هذا الأمل الساكن قلبها بعودته لتقر عينها برؤيته مرة أخرى.

تتخيله وقد صار شابًا صغيرًا يفوقها طولًا، فقد أكمل عامه الثاني عشر منذ عدة شهور، ترى كيف صارت ملامحه؟

هل شب ليشبه أباه وأخاه؟ أم ما زالت ملامحها تسكن تفاصيله كما قالوا لها دومًا إنه يشبهها؟!

فيض من دموعها الحارة يغرق وجهها، وزفرات أنفاسها الصامتة تخرج من صدرها محمله بنيران الشوق

والقلق، تخشى أن تعود ككل مرة بخفي حُنين، فلم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتصل بها أحدهم عندما يرى المنشورات الدورية على مواقع التواصل المصحوبة بآخر صورة لوليدها، ترجو من يراه في أي مكان أن يتواصل معهم، لتتكرر الرحلات والخيبات وكلما اغتيل أمل بداخلها، روت غيره بفيض من رجاء وأمل..

يمشي متلفتًا حوله كاللصوص كما اعتاد دومًا، يهرب من كل من يعرف نشأته، فقد هجر بلدته الصغيرة منذ سنوات عدة، هاربًا مُحملًا بخطاياه، ظن أن الأيام قد صفت له ووُأد العدل في مهده حين نجا بأفعاله المشينة من كل عقاب، تنتابه لحظات من جنون حين يسيطر عليه شيطانه، يبحث كالضواري عن فريسة صغيرة ضعيفة ليفتك ببراءتها كما اعتاد، لم يردعه إلا أن أوشك على الوقوع في فخ العدالة المحكم حين فاحت رائحة شذوذه في الجوار عندما تحرش بطفل بريء، كادت روحه أن تزهق من شدة ما ضربه والد الصغير، لكن حظه

لم يتخلَّ عنه بعد، فاستطاع الهرب قبل أن تصل الشرطة، ومنذ هذا اليوم يتخفى كالحيوان الأجرب الذي يخشى البشر، وحين غُلقت الأبواب في وجهه قرر العودة لبلدته الصغيرة مرة أخرى..

يخرج من بوابات المطار تعلو وجهه ابتسامة مُختلة، فقد تخلص أخيرًا من قلقه وها هو في طريق عودته لمنزل عائلته..

يخرج من منزله كل ظهيرة، يتجول في شوارع القرية، يتفحص النساء بلا مبالاة، ويسهل لعابه حين يرى مجموعة من الأطفال تلهو أمامه..

مر أسبوع منذ عودته، ساقته أقدامه لأطراف القرية، إلى أحد البيوت تحت الإنشاء حيث اعتاد ممارسة نجاساته.

صعق عندما رأى حالة من النشاط داخل المنزل، وحين علم أن مالكه يقوم بتجهيزه للسكن، هرول عائدًا

لمنزله، ليقوم بحجز تذكرة طيران في اليوم التالي ليعاود الفرار..

تجلس في صالة منزلها، تسمع أصوات الهرج في الشارع تتعالى، تحسبها مشاجرة بين بعض الشباب، يتعالى صوت أخيها من الأسفل ينادي باسمها، تفزع ظنًا منها أن هناك خطبًا ما، تقابله على سلالم المنزل صاعدًا يعدو، سألته ماذا بك؟ هل أصاب أحدًا منكم سوء؟

يطلب منها أن ترتدي عباءتها وتصحبه، تنزل لاهثة من خلفه، تسأله أين تذهب، فليس هذا بطريق منزلنا؟

ينظر إليها وغيمات من دموع تمنع عنه رؤية الطريق، وصلا لشارع على أطراف القرية، ترى باقي أخوتها وزوجها والكثير من الجيران، نساءً ورجالًا، الكل يخفي دموعه عنها، تحتضنها أختها فتسألها هل عرفتم شيئًا عن ولدي، تجهش الأخرى بالنحيب الصامت، يطلب منها أخوها أن تصعد معه، لتفاجأ على درجات السلم

ببعض من قوات الشرطة، تضرب طبول الخطر بقلبها، يطلب منها رجل مهندم الملابس أن تدخل إلى غرفة جانبية، يشير بيده إلى ركنها، يطلب منها أن تنظر إلى كومة من الرمال تتجمع هناك، تظلم الدنيا أمام عيونها، تحس بهزة تزلزل كيانها، تغلق عينيها بقوة وتلطم وجهها تتمنى أن يكون كابوسًا مرعبًا ستفيق منه إذا ضربت وجهها بقوة أكبر، تعيد النظر مرة أخرى إلى كومة من العظام الصغيرة البائسة تظهر بين بقايا ترنج أخضر اللون، وبجانبه حذاء علاه تراب سنوات ثمان مرت، وهي تبحث في أركان الأرض عن صغيرها الضائع، وها هو يرقد على بعد عدة أمتار منها، تحت كومة من الرمال...

أربع وعشرون ساعة مرت منذ العثور على جثة الملاك المغدور، ثارت براكين الغضب حين أكد الطب الشرعي أن هناك من فتك بجسده البريء قبل أن يزهق روحه، حالة من الفزع تطوف بين المنازل، يتذكر بعض الأهالي حادثة مشابهة حدثت منذ سنوات أسكنت

الرعب قلوب الأمهات خوفًا على أولادهم، تردد اسم النجس مرة أخرى في المجالس حتى وصل لأسماع رجال المباحث، وفي خلال ساعة كانت قوة منهم تداهم منزله، لتجده يحمل حقيبة سفره ويستعد للعودة من حيث أتى، لتتغير الوجهة، وتضربه صاعقة العدل الذي لا ينسى، يحكي لرجال الشرطة كيف ساقته أقداره بعد ثمان سنوات ليعود، يسدد ديونه، ويظهر المستور في لحظات، ينفخ القصاص الروح في رفات ضحاياه لتُبعث مأساتهم، تجلده نظرات كل الموجودين وهو يقص تفاصيل جريمته التي ظن أنه قد نجا منها بمكره، وأنساه شيطانه أن الله خير الماكرين..

العايقة

تعطلت ساعة عمرها عند منتصف الثلاثين، فلم تعترف بعدها بأن الأيام قد داستها بسنابكها، وعلا تضاريسها غبار السنوات المتسارعة، لم تلاحظ التجاعيد البارزة في وجهها وجيدها مهما حاولت إخفاءها بمساحيق التجميل، أغمضت عينيها عن ترهلات غزت جسدها مفرط السمنة فلا تزال تتخيل نفسها غزالًا شاردًا من قطيع غجري لا تحكمه قواعد ولا أعراف.

جاء نصيبها مع زوج يزين رأسه قرنا تيس جبلي، كأنه عقاب الله لها على تجبرها منذ ريعان الشباب، فقد شاعت عنها الحكايا وكأنها الساحرة تعتلي مقشتها، كحدأة تطير هنا وهناك لنشر الخراب في كل بيت ترى الحب شيمة أهله، تزرع نيران غيرتها وحقدها في كل أرض، فكان العدل أن ترزق بمثل هذا، ثور هائج، يعيش

فقط لإشباع رغباته، فيأكل وكأنه آخر الزاد، ويطلق لسانه في كل عِرض، ولا يفوق هوايته في هاتين إلا القفز على كل ما انتهى بتاء مؤنثة ولو كانت بقرة ترعى، يهجر داره سنوات لا يأبه بها، طالما يملك من المال ما يشري به الخمر ولفائف الكيف ومن تشعلها في لياليه المحرمة..

تجلس خالتها العجوز بجوارها، تحاول مد خيوط الود بينهما في الحديث، فقد ضاقت بكل ما تسمع عن بنت أختها حتى صارت حديث المجالس، سواء بين الأقارب ممن ينافقونها، أو الغريب الذي يشري كرامته في البعد عن لسانها السليط..

بدأت الخالة جلستها مبتسمة، تحاول انتقاء كلماتها لتتفادى رد الفعل المقزز الذي تتوقعه:

- مبروك ع العمرة يا حبيبتي، ربنا يتقبلها منك، يا ترى اتبسطتي هناك؟

ابتسمت مديحة وأخذت تذكر كم تكلفت الرحلة من أموال، وبكم ألفًا اشترت ملابسَ وهدايا، ثم أسرعت لجلب هاتفها المحمول الذي تعلمت كيفية استخدامه مؤخرًا، فتحت أستديو الصور الخاص به، لتعرض على خالتها ما يزيد عن ألف صورة في كل أركان الحرم، تضحك في هذه، تأكل في تلك، وتتصنع الدعاء في أخرى، لتعود إلى بلدتها "بفوتوسيشن" تعرضه على كل زائر، وكأنها كانت في رحلة للساحل الشمالي.

نظرتها خالتها متعجبة من تصرفاتها، وسألتها:

- إنتي اتصورتي كل الصور دي إمتى؟ دا العمرة كلها كانت أسبوع واحد، هو أنتي كنتي رايحة تحجي ولا تتصوري يا مديحة؟

تنظرها بغيظ لانتقادها تصرفاتها، وترد بكلمات تطفح غِلًّا:

- ما أتصور براحتي.. هو حد له عندي حاجة يا خالة!

ترد الخالة:

- لا يا حبيبتي براحتك طبعًا، بس الواحد لما راح هناك كان كل همة يؤدي العمرة والصلاة وقراءة القرآن في الحرم مش التصوير في كل مكان..

ردت عليها

بنفاد صبر رافضة سماع المزيد:

- اشربي شايك يا خالة علشان بِرد.

ترددت الخالة لدقائق وأخذت تفكر كيف سيكون رد فعلها على ما تود قوله إذا كان هذا هو رد الفعل على مجرد انتقاد بسيط لبعض الصور!!

لكنها قررت أن تُخلص ضميرها أمام الله وتقدم لها النصح، فهي رغم كل

شيء ابنة المرحومة أختها، وتهتم لسمعتها بالطبع..

بدأت حديثها بتردد:

- عقبال كل عمرة يا حبيبتي، بس المفروض بقى بعد العمرة بقيتي الحاجة مديحة، يعني مبقاش ينفع تقفي في الشارع بشعرك ولا بنص كم وهدوم ضيقة، ولا تخرجي من الحمام لافة الفوطة على شعرك وتقفي وسط الرجالة والبياعين في نص الشارع علشان الناس مش بتسيب حد في حاله، ومش وراهم غير الكلام عنك..

لم تمهلها الفرصة لتكمل حديثها، ليتعالى صوتها بأنها أنثى لا مثيل لها، وأن كل من ينتقد تصرفاتها فمن باب الغيرة من جمالها والحقد عليها، فالقرية بأكملها ليس من بين نسائها من تتمتع بفتنتها، جمال شعرها وعودها الذي أصاب الرجال بالجنون، وأنها لن تلقي لهم بالًا وستخرج وتفعل ما يحلو لها وليذهبوا للجحيم..

أخذت الخالة تحدث نفسها ندمًا على محاولتها تقديم النصح لمن لا يفقه دين ولا أدب، وخرجت تهرول من المنزل عازمةً على عدم العودة إليه مرةً أخرى..

مر أسبوع ومديحة تغلي مراجل حقدها على كل من حولها، كيف يجرؤون على انتقادها؟

وكيف تجرؤ هذه الخالة العجوز القبيحة أن تقول لها إنها أصبحت جده ولا تليق بها تصرفاتها؟ لابد أن تشعل النيران في قلوبهم كمدًا وقهرًا، وأن تتمادى فيما تفعل طالما سيصيبهم بالجنون..

جاءتها الفرصة أخيرًا، فاليوم زفاف واحدة من بنات العائلة، ولا بد لها أن تتزين كالعروس حتى تخطف أنظار الجميع، أحضرت عباءتها الحمراء التي لم تلبسها منذ سنوات لضيقها الشديد، وحاربت حتى حشرت جسدها الضخم داخلها، وقفت ساعة كاملة تضع من كل أصناف مساحيق التجميل حتى تحول وجهها للوحة سيريالية غير معلومة المعنى والملامح، جذبت زجاجة العطر لتفرغ ربع ما تحويه على جسدها وملابسها، لتنظر أخيرًا إلى نفسها بكل الرضا، وتحمل حقيبة يدها وتخرج متجهة نحو الحفل..

دخلت إلى الحفل يكاد ثوبها تنفجر خيوطه من هول ما يحوي، حتى تستطيع تمييز جبال الدهون المتجمعة هنا وهناك بنمط فوضوي، تسعدها نظرات المارة لها، تغمض عينيها عما يسكن نظرات البعض من ازدراء، وتتعلق روحها المريضة بابتسامات جائعة تلهث خلف كل معروض بثمن بخس، لا تترك مارًا إلا وتدس أنفها في تفاصيل حياته عنوة، ولا هواية غير الأحاديث الملتوية مع الرجال تخوض فيها كل عرض وتعرض لما سترته جدران غرف النوم لتسمع كلمة نفاق من حيوان يستمتع بالسخرية منها مع أول راغب.

تدور بين أركان قاعة الاحتفالات، تغرس أنياب نظراتها في كل رجل يمر أمامها، تسأل القادم والغادي عن هذا وذاك، كم عمره وما مهنته، تبحث لنفسها عن عريس مغفل يملك الكثير من الأموال، وسط سخرية ولمز كل الحاضرين، الذين يتمنون لو يملكون بعض الشجاعة لتذكيرها أنها جدة تجاوزت سنواتها الخمسين، ناهيك عن أن لها زوجًا بالفعل حتى ولو فضل هجرها مكتفيًا

بمن تشتري أمواله صحبتهم لساعات، فكيف تنوي أن تجمع بين الزوجين، إلا لو اخترعت دينًا جديدًا يتناسب مع غيها؟!

اتصال هاتفي من الزوج الغائب يخبرها فيه بعودته بعد أيام معدودات، تستقبل الخبر بامتعاض لكنها تتظاهر بالسعادة من أجل قائمة الهدايا والطلبات التي ستمليها عليه ليحضرها عند عودته، والكثير من الأموال التي سيرسلها لشراء متطلبات البيت التي تليق برجوعه إلى بيته بعد طول غياب..

تقف أمام البيت بثيابها المثيرة للجدل التي اعتادتها، سيارة دفع رباعية تقترب من المنزل لتتوقف أمامها، تفاجأ بزوجها الغائب يهبط منها، تسأله لم أخفى موعد طائرته ولم يخبرها حتى ترسل من يستقبله في المطار، ينظرها ببرود متأملًا ملامحها التي شاخت ويخبرها أنه قد اتفق مع صديق ليقله إلى المنزل..

تحاول التظاهر بالسعادة لحضوره، يُفتح الباب الخلفي للسيارة لتنزل منها فتاة في ريعان شبابها، جسد برازيلي مفعم بالحيوية، شعر كالحرير بطول متر ينساب على ظهرها، يتناقض سواده مع بشرتها بلون الحليب، ترتدي قفطانًا مغربيًا يليق بجمالها الخلاب، ومن خلفها طفل يقارب عمره الخامسة، تؤكد ملامحه المطابقة لها أنه ولدها دون أدنى شك، تقترب الفتاة من زوجها المبتسم بهدوء مريب، تمد يدها تتأبط زراعه، وتتوجه لمديحة قائلة بلكنة ساحرة:

- بونجور مدام..

تنتقل نظرات مديحة الإجرامية بين زوجها والفتاة والولد الصغير الذي أسرع يتشبث بزوجها ويحدثه بكلمات بلغة أجنبية لم تفهم منها سوى كلمة "papa"، ليبدأ الجنون. تصرخ في زوجها وصُحبته:

- "من هذه الفتاة التي تمسك بيدك بكل بجاحة؟

ومن هذا الولد المايع الذي يناديك بابا؟

أجبني بسرعة قبل أن أرتكب جريمة قتل هنا في وسط الشارع".

بدأ المارة في التجمع من حولهم، وكلما زاد صراخها زادت ابتسامة زوجها اتساعًا، لتصل صرخاتها عنان السماء حين رفع يد الفتاة إلى فمه يقبلها ويجيبها هي زوجتي منذ ست سنوات، وهذا ولدي الحبيب، ووريثي الوحيد بعد عمر طويل، فقد كتبت كل ثروتي باسمه ووالدته، أما أنت يا عايقة هانم فيكفيك ما سرقت مني طوال السنوات الماضية بالاتفاق مع أولادك الجبناء مثلك، والآن فقد جئت لأقول لك شيئًا واحدًا:

- أنت طالق.. طالق بالثلاثة يا أغبى البشر، والآن تستطيعين التفرغ للبحث عن عريس في الأفراح كيفما شئت..

تجمدت نظراتها لثوان، لترتفع صرخات النساء من حولهم مع سقوطها أرضًا مغشيًا عليها..

واحد شاي سكر بَره

جلس إلى الكرسي المتهالك في ركن المقهى الصغير القريب من منزل خطيبته، ينفخ دخان سيجارته الكليوباترا بضيق فيصنع من حوله ضبابًا يخفي دموعًا معلقة بين جفونه تأبى الهطول، يُحدث نفسه بصوت خافت، حتى لفت انتباه بعض الجالسين على الطاولات القريبة..

وقف صبي المقهى أمامه لثوان يحدثه وهو غارق في شروده وأفكاره الواضح على وجهه سوداويتها.

ناداه الصبي للمرة الخامسة، انتبه له أخيرًا ليطلب منه كوبًا من الشاي سكر زيادة..

ينظر من بين الدخان المتصاعد من سيجارته ومن حوله، نحو بيت خطيبته القريب، يستعيد شجاره منذ دقائق مع حماته التي تسعى بكل جد لطرده وفض

الخطبة، فقد لاح في أفقها عريس قادم من الكويت، تمتلئ جيوبه بالدينارات المباركة، والذي حمل لها من الهدايا ما أزاغ بصرها..

تقف خطيبته مكتوفة الأيدي، لا تجد من الكلمات ما تدافع بها عنه، فقد نفد رصيد حججها طوال خمس سنوات هي عمر خطبتهما، نعم هي تحبه لكن العمر يمر سريعًا، وهي تقف "محلك سر" تحضر الأفراح وتبارك لهذه وتلك، تشاهد بنات خالاتها وعماتها الأصغر منها كل منهن في بيتها تحمل على كتفها طفلًا واثنين..

ترتسم أفكاره خطوطًا بائسة على وجهه، يحدث نفسه:

"ما ذنبي إن مات والدي منذ سنوات تاركًا لي من بعده إرثًا من الديون، وإخوة صغارًا يحتاجون من يرعاهم ويعمل على تربيتهم؟

ما ذنبي أن ساءت أحوال البلاد حتى اضطر صاحب الورشة التي عملت بها لسنوات لإغلاقها، وبعد أن كانت تضم أكثر الأسطوات تميزًا في صناعة الموبيليا وتفتح عشرات البيوت تتحول إلى محل للفول والفلافل، ونضيع وسط دوامات البطالة والعوز؟".

يتذكر اتصاله منذ قليل على واحد ممن يقدمون القروض للشباب، طالبًا منه بعض المال ليستطيع إكمال زيجته التي قاربت أن تصبح دربًا من المستحيل، ليصدمه بأنه لا بد له من ضامن، وأن نسبة الفائدة على القرض قد وصلت مئة بالمئة.

يُحدث نفسه بصدمة:

" كيف يُعقل أن يُقرضني مائة ألف من الجنيهات ليستعيدها بعد سنة واحدة مئتين!! في أي شرع هذا يا بشر؟!!".

يمد يده في جيب بنطاله، يخرج دبلة من الذهب عيار ١٨، هي كل ما قدم لخطيبته في قراءة الفاتحة، على أمل أن يكمل لها شبكتها حين ميسرة، لكن ها هي حماته تلقي بها في وجهه، تسمعه كلمات كالرصاص عن مستقبل البنت وسنوات عمرها التي ضاعت هدرًا إلى جانبه، حاول تهدئتها ببعض الوعود لكنها قذفته بسهام من نار، وأشعلت قلبه وكرامته بكلمات كالسياط:

- اخرج ولو عندك بعض كرامة فلا تعود مرة أخرى، ولا تحاول التواصل مع ابنتي، ولتتركها لمن يستطيع أن يوفر لها حياة كريمة تستحقها..

جاء صبي القهوجي يحمل صينية صغيرة من الإستانلس ستيل، عليها كوب زجاجيّ من الشاي وآخر من الماء، وسكرية صغيرة من الإستيل أيضًا بها القليل من السكر، ليضعها أمام المعلم عبد الله الذي يبدو شاردًا في عالم آخر على غير عادته وينصرف صامتًا.

يمد عبد الله يده إلى السكرية ويفرغ كل ما فيها في كوب الشاي دون وعي، يتذوقه فيجد طعم مرارة الحياة التي تسكنه وقد تسرب للكوب فلا طعم له ولا رائحة سواها.

ينادي صبي القهوجي طالبًا المزيد من السُّكر، يعترض الصبي لأن الطلب معه من السكر ما يكفي ويفيض، وأي طلب زيادة لا بد من دفع ثمنها؛ فكيلو السكر قد تعدى الخمسين جنيها، ناهيك عن الشاي والقهوة وقد تضاعف سعرهما مرات ومرات، حتى أصبح المقهى في مأزق شديد..

تتلاعب الشياطين بعقل الشاب المغلوب على أمره، تتلون الحياة من كل جوانبها بالأسود القاتم، حتى كوب الشاي أصبح تناوله مشكلة تحتاج إلى المزيد من المال.

ارتفع صوته بالسباب للفتى الصغير وللحياة كلها بما فيها ومن فيها.

يجيبه الفتى بعيون دامعة وقد صدمه رد فعله:

- وأنا ذنبي إيه يا أسطى عبد الله، هو أنا اللي غليت السكر علشان تشتمني بأهلي..

زادت دموع الفتى من ثورة شياطينه، هو يعلم أن الفتى لا ذنب له، لكنه كان الحائط المائل الذي وجده أمامه ليخرج دفعة الغضب التي تغلي بداخله:

الحياة

حماته

الدبلة الغافية في جيبه

رجل القروض الظالم

الظروف التي صنعت منه عاطلًا لتكسره أمام نفسه وأهله وخطيبته وأهلها.

لم يتمالك نفسه مع فوران كل هذه الأفكار السوداوية في رأسه حتى قام وانهال على الفتى المسكين بالضرب، صفعة تلو الأخرى يُسمع صداها كل الشارع.

وقف بعض الحاضرين بينهما محاولين إبعاده عن الفتى الصغير، لتزيد ثورته أكثر، ويصيح في الجميع:

- اللي مش هيبعد عن وشي هأقتله، إنتوا عاوزين مني إييه؟!!

يجري داخل المقهى ناحية نصبة الشاي في زاويتها، يبحث عن سلاح ما ليحمله في وجه من يحاول منعه عن ضرب الفتى أو حتى الاعتراض، تمتد يده نحو سكين ملقى بإهمال على الرخامة بجانب أحجار المعسل المرصوصة بعناية، يحمله، يهدد به المحيطين فيبتعد الجميع مفضلين السلامة.

يتجه نحو الفتى الذي يحاول الدفاع عن نفسه بلا جدوى..

يزداد الهرج من حولهما، يتعالى صياح الرجال من حوله بكلمات لا يفهمها، وامرأة تصرخ "بالصوت الحياني"، يخيل إليه أن الفتى ومن حوله جميعًا يسخرون من فقره وعجزه، يسدد السكين بكل قوته باتجاه الفتى، لترشق في وسط رقبته وتخرج بنصلها الحاد من الجهة المقابلة.

يزداد الصراح مع جري الفتى بترنح بين الترابيزات، ونافورة من الدماء تنفجر من رقبته، ليسقط مفارقًا الحياة ومن حوله بركة من الدماء المختلطة بشظايا زجاج أكواب الشاي والكثير من السُّكر..

بوار

تنظر انعكاسها في المرآة، شعر تخضب ببعض من فضة القمر المنثورة في ليالي الهجر الطويلة، عيون حفر الزمان من حولها قنوات طالما جرت فيها دموع الرجاء لتروي أملًا ظل حبيسًا خلف أسوار الدعاء لم يكتب له التحقق في هذه الدنيا، ليكون الصبر عليه بعضًا من ثواب ينتظرها في الآخرة، جسد يتحول للهزال يومًا بعد يوم، تنفض عظامها عنها ما كان من شحم رسم تفاصيل أنوثتها المغوية التي كانت، ترهل نهداها وجفت آبارهما التي عاشت العمر تشتاق ولو لخيال طفل تلقمه إياهما لتتفجر ينابيع عطائها، تَهِبه بعضًا من حياة.

معاناة امتدت لعقدين من الزمان، تغتالها النظرات المشفقة، وتذر الرمال في عيون عجزها نظرات الاتهام لتمطر بلا أمل.

تتذكر الأيام الخوالي، حين اعتادت طعنات خناجر حماتها المسمومة عن أرضها البور، وأن الرغيف الذي تأكله في بيتها دون طفل يحمل اسم ولدها حرام أن تذوق طعمه.

تنظر إلى زوجها تستجديه أن يزود عنها لكن خوفه من جبروت أمه يمنعه، فينتظر ابتعادها ليقترب من زوجته الغارقة في آلامها، يحيطها بذارعيه، ويسر إليها:

- حقك على رأسي يا ست الناس، يا صفية أنتِ عندي بالدنيا وما فيها، لا أريد سواكِ لا عزوة ولا ولد.

تتوالى الصباحات والمساءات، تتبدل ألوان الليل المبهرجة بأخرى تحمل ألوان الخريف المتساقطة، كَلَّ الجسد من آلامه مع كل شهر يطل عليها تنتظر فيه ولادة أمل جديد، لتخرج منه لا تحمل بين يديها سوى السراب.

أصبحت كل يوم في شأن جديد، تجارب لا تنتهي، أبواب لا حصر لها تُطرق بغض النظر عما يكمن خلفها، من أبواب الدجالين المشعوذين، لأبواب طبيب الوحدة الصحية البعيدة، ليبتليها بأكوام من الحبوب من كل صنف ولون، وأخرى من المحاقن التي تركت آثارها في كل عقلة من جسدها دون جدوى.

تعدو السنوات وكأنها في سباق لا هوادة فيه ولا راحة، تباعدت ليالي السمر لتخرصها الأماني السجينة في القلوب، استبدل الخريف رداءه بأثمال بالية تُكفن جسدًا يحيا بلا روح..

ضاعت ضمات المواساة تحت أنقاض القنوط، تعالى صوته مؤنبًا:

- أنا إيه ذنبي إني أعيش مبتور الذرية والذكرى، مين يورث شقاي، أنا راجل ملو هدومي والصبح أتجوز صبية بنت بنوت، وأخلف بدل الولد عشرة.

تربت على كتفه بلطف، تردد كلماته بصوت خفيض:

- ومين يقدر يقول غير كده يا سيد الناس، حقك تسعى لوريث يحمل اسمك ويعلي ذكرك، وأنا أول المباركين.

يخرج مزهوًا نحو غرفة أمه يطمئنها أن خططتها قد أثمرت، تحثه على الاستيلاء على ذهب زوجته القديمة ليقدم بعضه للعروس التي زارت أهلها منذ أيام، وطالبته بالإسراع بشراء غرفة نوم جديدة، وتجهيز الغرفة الكبيرة التي يسكنها وزوجته لاستقبال العروس الجديدة، وعلى القديمة الاكتفاء بركن منزو في الغرفة الصغيرة حيث الخزين والمؤنة.

يحاول فتح فمه للاعتراض فتصمته بنظرة توقف الكلمات على طرف لسانه، فيبتلعها خائبًا ويخرج لينفذ المطلوب.

تجلس في ركن الغرفة المظلم تداري دموعًا غلبتها ففاضت، تتذكر تفاصيل السنة التي مرت عليها كقرن من الزمان، يوم زفت زوجها بالزغاريد للعروسة الشابة، لتتحول من بعدها لشبح خادمة تنتقل بين زوايا البيت لكل من يحتاجها، تعمل بلا كلل مقابل القليل من طعام يقيم صلبها.

تسمع أصوات الهرج القادمة من الخارج، تدق أصوات الهون مسامعها، وأم العروس تردد وهي تهز الصغير في غربال يمتلئ من حوله بالحلوى:

- اسمع كلام أمك.. اسمع كلام جدتك أم أبوك، اسمع كلام جدتك أم أمك.. ومتسمعش كلام أبوك..

تتعالى ضحكات النساء، مختلطة بصوت بكاء الصغير الذي أزعجته الضوضاء المتزايدة.

تجمع ما بقي بداخلها من قوة، تتحامل على أوجاع جسدها وروحها، تخرج من غرفتها ترسم على وجهها ابتسامة مضيئة، تسرع نحو العروس أم الولد لتهنئتها وتقديم هديتها للصغير الباكي، تمد يدها لتحمله، وتروي شوقها لرائحة ولد من صلب حبيبها، فتخطفه جدته من بين يديها، رافضةً أن تلمسه، يقترب أبوه من أمه يحدثها أن اتركيها تشاركنا فرحتنا، لترشقها بوابل من رصاص كلماتها المشينة، وتطلب من أم الولد أن تخبئه من عيون الحاسدين، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منه أبدًا..

تعود إلى غرفتها تجر عجزها وألمها، تجلس إلى نفس الركن الذي أصبح ملجأها منذ شهور مضت، تضم ركبتيها إلى صدرها، وتلقى برأسها ليرتاح من ضجيج العالم القاسي، تفرغ ما فاضت به روحها من دموع، لعلها تحمل ما بقلبها من غصة فتلقيها على شواطئ النسيان.

دخل عليها زوجها الغرفة المظلمة يتسلل مخافة بطش أمه، وصوت زوجته الثانية المتعالي كلما لمحته يتحدث إلى صفية، يراها على جلستها مستندةً برأسها للحائط، فيبكي قلبه حزنًا على حالها، يؤنبه ضميره أن تخلى عنها وتركها في مهب ريح والدته وضرتها يصنعان بها ما يحلو لهما، حتى وصل بها الحال لما يراه الآن.

اقترب منها ليجلس إلى جوارها، يحددها بصوت خفيض يقطر ندمًا:

- سامحيني يا صفية، أنتي عارفة إنك اللي ساكنة القلب وعمرك ما هونتي عليه، بس هي أمي وطبعها اللي أنتي عارفاه، والمخبولة اللي ابتلتني بيها دي، والله لولا الولد ما كنت اتحملتها يوم.

يمد يده ليلمسها، يحتضنها، يخفف عنها وحدتها وكسرتها أمام الغرباء، فلا يجد بين يديه غير جسد بارد اختار الفراق على حياة الهوان.

لقد رحلت يوم رضي لها الذل لباسًا وها هي اليوم تحمل كل فرحته بولده لترحل وتحمل معها قطعة من قلبه ماتت بفراقها.

ملعقة صَدِئة

أنظر إلى نافذتي الملجمة بقيود الأسر، أتخيل بصيصًا من ضوء نجمة لامعة تصارع سواد الليالي الكئيبة، لتنعكس على روحي تملأها بالأمل في الوصول يومًا للشاطئ الآخر من هذا اليم المُظلم الشاسعة أطرافه.

تنخر عظامي برودة هذا القبر الذي أُلقيت بين أنيابه، لا أعلم في أي طابق نحن، تعتصر روحي جدرانه الموشومة بصبر الذين سبقونا، فخطوا أسماءهم لتكون أثرًا شاهدًا على مرورهم، فلا نعلم أكان مصيرهم حرية أم استشهادًا.

تراودني أحلام بأن ينبت لي جناحان فأسابق النوارس المحلقة فوق أرصفة يافا، تحملني رياحها المُحملة بعطور الوطن الدافئة، لأجول هنا وهناك بين ربوع أرضي الثكلى، ألقي سلامي على القدس والخليل صباحًا، لأنام

ليلًا قرير العين في ظلال أشجار الزيتون في عكا، أُصاحب أمواج البحر، ألهو على شطآنه بطول ساحل المتوسط في غزة، يافا، طولكرم، وحيفا؛ ليختلط كياني بنضارة أشجار البرتقال والزيتون والنخيل.

أنظر إلى هذه الملعقة الصدئة في يدي، يختلط طعم الدماء عليها بوجبتي الفقيرة التي تشعرني بالغثيان كلما أُجبرت على ابتلاعها، تنتابني فكرة مجنونة، أسائلها:

- أيعقل أن تكوني أيتها الضعيفة مفتاح قيودي؟

أُسائل أصدقائي:

- هل تتخيل أن نتحرر يومًا من هذا القبر العفن الذي يضمنا بين جنباته؟

أشعل حماسي بنظرات تنطق بالثقة في الله، ثم وضع يده على قلبي متمتمًا:

طالما يمتلأ هذا بالأمل فقد قطعت معظم الطريق نحو الخلاص.

أنبش جدران المستحيل بأنامل أنهكها طول الطريق، أخبئ أنقاضها بين ثنايا روحي وبعض من ركام الحياة، نتبادل الحلم فيما بين ثلاثتنا، حبيبات من طين اختلطت بدموع الرجاء، حولت جدران المستحيل من حولنا هباءً منثورًا.

يزأر قلبي مع أول نفس اختلط بذرات الحرية يحيي رفات روح سكنتني حتى فاح عفن الأسر داخلها، إنه النقاء يختلط بعبق من كبرياء يفوح منها الزعتر البري وحلم بشواء تحت ظلال أشجار الزيتون مع الأحباب..

خطوات في طريق النجاة داخل نفق حفرته ملعقتنا الصدئة، نهرب من أشباح تطاردنا ككلاب الصيد المفترسة، تتشمم ريحنا هنا وهناك، تنثر الدنانير الذهبية في طرقات الخونة ليشيروا إلينا بالبنان، أوجعتهم ضربتنا، فكم هم ضعفاء يتسربلون برداء من فولاذ خوفًا ورعبًا..

نقع مرة أخرى في فخاخهم، أرى قطعا من ظلام جهنم مقبلًا علينا، لكن وللمرة الأولى أراه بحجم رأس

عود ثقاب مشتعل، لكم تضاءلت هيبتهم في عيوني، وتلاشت رهبتهم من قلبي، فلقد هزمتهم يومًا بملعقةٍ صدئة ودعاء.

جحود

أقف في مهب ريح عاصف لا أدري مصدرها، أتحيط بي، أم تنبع من داخلي؟

تدوي كلماتهم في أذني كما قرع طبول الحرب، لا تعطيني أدنى فرصة للنجاة، تدفعني دفعًا لإنهاء هذه المهزلة السرمدية التي امتدت طوال سنواتي ومنذ استوعبت معنى أن أكون لقيطًا.

هذه الكلمة التي تشبه وشم النيران على جسد حيوان عاجز، وُسمت بها بلا أي ذنب اقترفته، وستظل دومًا تطاردني ما حييت..

أعيش كالحامل لطاعون معدٍ، يتجنب الجميع الاقتراب مني وكأني سأنقل لهم عُهر من أنجبتني.

يتعاملون معي كما لو كنت شريكهما في جرمهما ونلت نصيبي من المتعة المحرمة، فأنا المذنب الوحيد الذي لم يقترف ذنبًا.

أُسائل هذا الرجل الطيب الذي رزقتني به الأقدار أبًا صالحًا:

- لم قُدر عليّ أن أحمل أوزارًا تنوء بحملها الجبال؟ لم أدفع فاتورة متعة من كانا سبب شقائي في هذه الحياة!؟

يمسح بيده على لحيته التي تخللها بياض انعكس من نقاء قلبه لينير وجهه، يجيبني:

- إنها أقدار الله يا ولدي، وما كانت لنا الخيرة، فلتصبر ولتحتسب، إنما هي دُنيا كمثل اسمها ووسمها، وإنما العيش عيش الآخرة.

يطغى ألمي على اقتناعي بكلماته، ينتابني شعور بالغثيان عندما أفكر كيف عشت سنوات من عُمري أحلم بها.

أتساءل:

" كيف تبدو؟

أأشبهها أم أشبه هذا الذي أتيتُ من صلبه؟!

لم تخلت عني؟

ألم أكن سوى نطفة بائسة قُدر لها أن تُقذف إلى هذه الحياة في ليلة متعة مُحرمة؟

أم تخلت عني من فقرٍ قض ظهرها فاقتطعت جزءًا من قلبها وتركتني عَلّي أنعم بحياة كريمة؟!".

هكذا حاول دومًا أن يقنعني هذا الرجل الكريم الذي تكفل بتربيتي منذ وجدني على قارعة الطريق مكللًا بالخطيئة والشقاء..

لا أنكر فضله يومًا فقد كان لي نعم العون والسند، لكنه عجز عن محو وشمي الذي طارده معي وقض مضجعه، حتى جاء دوره في التخلي عني.

سنوات طوال مرت، ولم أتخلص من عاري، تركت مدرستي، تخلى عني كل صديق، فآثرت الانتقال من هذه البلدة الظالم أهلها لحياة جديدة، دفنت الماضي بكل آلامه، وركبت أول سيارة حملتني إلى جوار آل البيت الكرام.

ضاقت بي شوارع المحروسة، فأنا المستضعف أينما حللت، لم يرحمني من قسوة التشرد سوى هذه السيدة صاحبة المقهى البلدي الذي دخلته طالبًا كوبًا من الشاي ورغيفًا من الخبز أسد به جوعي بعد نفاد أموالي.

وافقت على جعلي واحدًا من صبيان المقهى، أتجول في حرم الحُسين أحمل تُرمسًا من الشاي وبعض الأكواب أبيعها لمن يريد.

أحن إلى أحضان أبي الذي رباني، أشتاق كلماته التي كانت تنزل على روحي كالغيث يرويها، لكني أشفق عليه من حرج تحول لكابوس مرهق منذ بلوغي مبلغ الشباب،

فلبيته حُرمه، ومهما كانت ثقته في شخصي فللدين أحكام تظل سيوفًا على رقاب من كان عاقلًا.

أقف مستندًا إلى الجدار بجوار المقهى، تفيض عيناي بحارًا من وجع، تناديني الحاجة مرزوقة تسألني:

- ما لك يا ابني، بتبكي ليه، إحكيلي أنا زي أمك برضه.

أنظر إليها، أريد أن أصرخ بها: "لا تشبهي نفسك بأمي، فأنت لم تكوني تلك الخاطئة التي تأكدت من جُرمها قبل هروبي"، تختنق الكلمات بداخلي، أهرب من أمامها مترنحًا.

يتجسد أمامي يوم ذهبت لهذه المسماة أمي، فقد أشفقت على حالي واحدة من جيران أبي الذي رباني، فأخبرتني ذات يوم أن أمي ليست بالمجهولة لهم كما ادعوا، فهم يعلمون من هي وأين تسكن.

أصابتني كلماتها بالحسرة على أيام مرت من عمري ولم أعرف بوجودها.

قررت الذهاب لها من فوري، لألوذ بأحضانها، أتجرع بعض الأمان والحب عسى ظهري المنحني تحت ثقل العار يستقيم.

ذهبت إليها وقلبي تملأه الأماني، أحارب شياطيني طوال الطريق كي لا أعود، طرقت بابها بيد ترتعش، لتفتحه امرأة جميلة، وقفت أتأمل عيونها بلون العسل فقد ورثت نسخةً منها، أشبهها في كل تفاصيلها، لونها الخمري، وهذه الشامة فوق حاجبها الأيسر التي طالما تمنيت محوها ولم أدرك يومًا أنها جزء من إرثي منها.

اتسعت نظراتها برعب حقيقي، كمن رأى شبحًا يطرق بابه، سألتها:

- أأنت أمي؟

ليكون ردها هو القشة التي قسمت ظهري حين جاءني ردها:

- إنت مين دلك على العنوان ده، أنا مش أم حد، إنت لازم تختفي حالًا، أنا ست متجوزة وعندي ولاد

بخاف عليهم، إنت كنت مجرد غلطة مع واحد ندل دفعت تمنها من زمان ونسيتها، وإنت جاي النهارده عاوز تفضحني وتنتقم مني.

أظلمت الدنيا من حولي، لقد جئتها أشتاق دفء أحضانها، لتبدد أحلامي بجبروت كلماتها، ترددت بداخلي آلاف الكلمات الجارحة، لكن لساني أبى النطق بها.

أهذه أمي التي طالما حلمت بلقائها؟

لقد كان أبي محقًا عندما أمرني بعدم البحث عنها، فما أيسر الوصول لمن نحب إذا أردنا، فلا يوجد ما يمنع أمًّا تعلم طريق ولدها ألا تراه، إذا أرادت..

أصوات تناديني من بعيد تنتشلني من ضياعي في جُب ذكرياتي الآثمة، استجمعت ما بقي بداخلي من قوة لأرد بصوت عالٍ تشوبه رجفة ضياع:

- أيوه جاي يا معلمة.

أحمل بيدي ترمس الشاي والأكواب في كرتونة صغيرة أُسندها على يدي اليمنى، لأحاول الاتزان مستخدمًا يدي الأخرى وأنا أجر قدمي اليسرى المعطوبة، فأنا لم أكن مجرد لقيط فقط، فأنا هذ اللقيط المُعاق الملعون بلا خطيئة ولا ذنب اقترفته.

الفهرس

راح ضَلّ ناطرتك ٩

منزل فاخر للبيع ١٧

السيد ٢٧

سنوات الحب والمعاناة ٣٣

لوكاصولا ٤١

ورقة بفرة ٦٧

آل ياسين ٧١

الوريثة "إكفي القِدرة على فُمها" ٧٧

المارد الحمار ٨١

عين براهما ٨٧

زفاف مؤجل ٩٧

ترنج أخضر وحذاء ١٠١

العايقة ١٠٩
واحد شاي سكر بَره ١١٩
بوار ١٢٧
ملعقة صدئة ١٣٥
جحود ١٣٩
الفهرس ١٤٧